الكتب والمكتبات

في الأندلس

الكتب والمكتبات
في الأندلس

دكتور حامد الشافعي دياب
جامعة القاهرة ـ كلية الآداب

الناشـر
دار قبــاء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبده غريب

الكتـــــاب :**الكتب والمكتبات فى الأندلس**

المؤلـــــف : **الدكتور حامد الشافعى دياب**

الطبعة الأولى : **١٩٩٨م**

الناشـــــر : **دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع**

عبده غريب

شركة مساهمة مصرية

المركز الرئيسى مدينة العاشر من رمضان

والمطابـــــع : المنطقة الصناعية (C1)

ت: ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون

الدور الأول - شقة ٦

ت ، ف : ٢٤٧٤٠٣٨

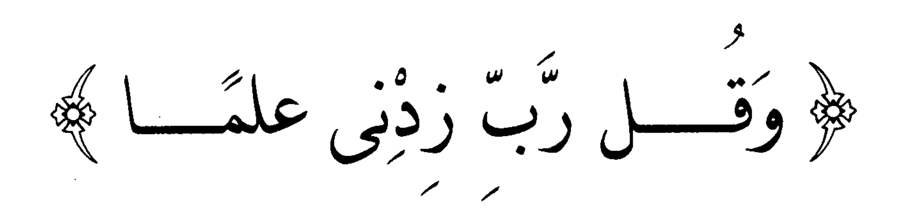
التوزيـــــع : ١٠ ش كامل صدقى ـ الفجالة (القاهرة)

رقـــم الإيـــداع : ٩٧/١٠٠١٧

الترقيـــم الـدولـــى : I. S. B. N.

977 - 5810-61-2

بسم الله الرحمن الرحيم



صدق الله العظيم

قائمة المحتويات

المقدمـــــة

- تمهيد
- أهمية الدراسة
- هدف الدراسة
- منهج الدراسة
- نطاق الدراسة وحدودها
- فصول الدراسة ومباحثها

الحمد لله رب العالمين، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذى حض على العلم والتعليم ورفع قدر العلماء حتى جعلهم ورثة الأنبياء ....وبعد.

١/٠ تمهيد

إن الأمم العظيمة لا ترضى ولا تستطيع أن تنسلخ عن تاريخها، ذلك أن تاريخها هو وعاء ثقافتها وحضارتها، فى حقب هذا التاريخ نشأت ونمت وتطورت وإجتازت محنا وحققت مجدا وبنت حضارة وقدمت فكرا، وكانت الكلمة المكتوبة منذ القدم ــ ولا تزال ــ سجلاً لتراث الأمم، سردا لتاريخ وتصويرا لحاضرها واستشرافا لمستقبلها.

ولما كان العلم هو السلاح الحقيقى لإرادة الامم، فإن الأمة العربية لم تتنكر لماضيها، ولم تغفل تراثها الاسلامى العريق، بل بدأت منذ زمن ليس بقريب بالكشف عن هذا التراث التليد، تعريفا ودراسة وتحقيقاً ونشراً تحت راية العلم ومنهجه وأساليبه، ترعى تراثها العريق الذى كانت أشعته تضئ ظلام العالم فى أيام أزدهار ماضينا.

إن هذا التراث العربى الاسلامى هو ثمرة العقول العربية على مر العصور وفى جميع دول العالم الاسلامى، غربه وشرقه، شماله وجنوبه، متضمناً ما كتبه اسلافنا فى أفريقيا وأسيا وأوروبا نفسها فى الأندلس العظيمة.

والتراث العربى الاسلامى هو لوح الدهر الحافل بذكريات أفذاذ العالم الاسلامى وأقطاب العلم والتفكير، وفى محاولتنا الدائبة، وفى سعينا المتواصل للرقى، لابد لنا من الاهتمام بتراثنا وكشف الضر عنه، وحصره من مظانه المختلفة، والتعريف به، ودراسته دراسة علمية للتعرف على خصائصه وسماته ومضامينه، واستنباط المبادئ والدروس المفيدة، واستخراج الأسس والدعائم التى قامت عليها حضارة الاجداد لتكون لنا نبراساً مرشداً الى المستقبل المنشود.

والحق يقال، أنه فى الآونة الأخيرة، بدأ الاهتمام يتزايد ـ الى حد ما ـ نحو دراسة الحضارة الإسلامية وعلومها والعوامل التى ساعدت على ازدهارها، وتأثيرها على الحضارة الأوربية الحديثة، وتسليط الضوء على ما قدمه العلماء العرب والمسلمون من مجهودات مهدت الطريق لعلماء الغرب فى بناء حضارتهم الحديثة. ولكننا لازلنا فى حاجة الى دراسات أكثر لاستجلاء مكنونات هذه الحضارة الإسلامية العظيمة.

٢/٠ أهمية الدراسة

والبحث فى تاريخ الكتب والمكتبات ليس هروباً من الواقع الى الماضى للتخلص من ضغط الحاضر ومواجهة المستقبل كما يعتقد البعض، ولكن التاريخ هنا اكبر من أن تقف دون تواصله الحواجز والسنون، فالتاريخ بصفة عامة وتاريخ المكتبات بصفة خاصة أكثر عطاء من الحاضر المصنوع فىأغلب الأحيان، وحافز على استلهام الشخصية الحضارية والمكانة العلمية للامة العربية والإسلامية.

ان الكتب على مر العصور كانت ـ ولا تزال وستظل ـــ بمثابة حصون فكرية فى بناء الحضارة الإسلامية، وسداً منيعاً وواجهة متقدمة فى

الذود عن الاسلام ودرء الاخطار والتحديات التى تحدق به وتستهدف النيل منه.

ان استقراءنا لتاريخ الكتب والمكتبات فى ربوع الامة الاسلامية عامة وفى الأندلس خاصة، ليؤكد لنا بجلاء ووضوح كيف كانت هذه المكتبات منبراً للتنوير ومدرسة للتثقيف ومصدراً لنشر العلوم والمعارف، ومن ثم فهمى تعنى فى تراثنا الشئ الكبير، وتعنى فى حضارتنا الشموخ وفى واقعنا الامتداد والأصالة.

ومن العيب أن يجهل ابناء هذه الأمة هذا الوعى الثقافى وتلك النهضة الحضارية التى تجاوزت حدود الزمان والمكان، ومن ثم كانت هذه الدراسة التى تحاول أن تصل ما انقطع من ثقافة وتتابع وما توقف من حضارة.

واليوم تتجه الأمة الإسلامية نحو اكتشاف ذاتها، والبحث لها عن موطئ قدم لتسترد مكانتها اللائقة بين دول العالم المتحضرة، ومن الطبيعى أن تتجه الانظار الى البحث عن المقدمات الاساسية للنهوض بالعالم الإسلامى، وفى مقدمتها الكتب والمكتبات باعتبارهما وعاء للعلم ومصدرا للتعليم والتعلم.

والمتتبع لمسيرة تاريخ الحضارة العربية الاسلامية، لايجد مفراً من التسليم بقضية جوهرية، وهى أن ازدهار هذه الحضارة قد واكبتها ودعمتها مكتبات أجيد ادراتها فنياً وادارياً، وأعدت مقتنياتها للبحث والتنقيب العلمى.

وإذا كانت الثقافة هى المحتوى الفكرى لأية حضارة، تسكبه فى وعاء انسانها المعاصر لها، وإذا كان الشق المادى للحضارة يتمثل فى العمران والمرافق، فان شقها الفكرى يتمثل فى الكتب والمكتبات باعتبارهما اداة للتثقيف ومصدراً لنشر العلم والمعرفة.

ولا أريد أن أسترسل فى بيان أهمية هذه الدراسة، بل تكفى الإشارة الى أن الدراسات والأبحاث فى تاريخ الكتب والمكتبات بصفة عامة، والاسلامية بصفة خاصة، والأندلسية الاسلامية بصفة أخص، قليلة العدد والعدة، تكاد تكون نادر، بل نغالى اذا قلنا ان كثيرا من الباحثين والدراسين يتجنبون مشقة البحث فى هذه الموضوعات والتصدى لدراستها، ليس فقط لصعوبتها، بل أيضاً لقلة مصادرها وتيعثر معلوماتها.

من هنا نرى أن دراسة وبحث حركة الكتب ونشأة المكتبات فى الأندلس الاسلامية أصبحت أمراً ضرورياً ذات أثر حيوى، حتى يتبين لنا كيف بدأت هذه الحركة وعوامل ازدهارها ونتائج جهد العلماء وأنصاف أعمال السلف، وفهم قضية تطور العلوم والمعرفة الانسانية، واماطة اللثام عن الدور الذى لعبته المكتبات الأندلسية فى تثقيف المجتمع ونشر الوعى وحفظ العلم، ثم بيان مدى التأثيرات العربية على الحضارة الغربية عن طريق المؤلفات الأندلسية وحضارتها الرائعة.

٣/٠ هدف الدراسة

تهدف هذه الدراسة فيما تهدف إلى الكشف عن جانب من جوانب إشراق الماضى فى واحدة من حواضر الأمة الأسلامية وهى الحضارة الإندلسية فى جانبها المعرفى المتمثل فى الكتب و المكتبات.

وعلى ذلك يمكن بلورة مجموعة الاهداف التفصيلية على النحو التالى:

١ ـ التعرف على اتجاهات التأليف فى التراث العربى الأندلسى من خلال ما تنبئ به دراسة الحركة العلمية والثقافية فى الأندلس.

٢ ـ التعرف على نشأة الكتب وطرق تأليفها وانتاجها وتوزيعها وكل ما يتعلق بها، وكيفية حصرها حصراً ببليوجرافياً علمياً.

٣ ـ التعرف على نشأة وانتشار المكتبات فى الأندلس وأنواعها وطرائق تنظيمها ومجموعاتها وخدماتها، مع أمثلة منها.

٤ـ التعرف على مصير الارث الثقافى "الكتب" التى تركها لنا اجدادنا علماء الأندلس وما أصابها من نكسات داخلية ومصائب خارجية.

وتنطلق هذه الدراسة من مجموعة من المسلمات، والتى يمكن ايجازها فيما يلى:

١ ـ ان اهتمام العلماء بالعلم والتأليف فيه كان نتيجة اهتمامهم بكتاب الله وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم.

٢ ـ ان نشأة المكتبات الاسلامية ارتبطت بالاسلام وانتشاره.

٣ ـ ان المساجد كانت الأماكن الأولى التى وجدت بها مكتبات.

٤ ـ ان انتشار المكتبات والعناية بها جاء نتيجة مبادرات فردية من لدن الأفراد وخاصة العلماء والأمراء بسبب شغفهم بجمع الكتب.

٤/٠ منهج الدراسة

ولدراسة هذا الموضوع، اعتمد الباحث على عدة اساليب منهجية تتناسب مع القضية أو العنصر المدروس منها:

* المنهج التاريخى الذى يستند الى استرداد الماضى لفحص احداثه تبعاً لما تركه من آثار فكرية، للاعتماد عليها فى تكوين حقائق جديدة.

* منهج الوصف التحليلى: حيث لجأ الباحث الى عدد من الكتب التراثية عن تاريخ الأندلس وتراجم رجالاته للبحث عن نصوص ذات علاقة بالكتب والمكتبات فى الأندلس، ومن ثم قام بجمع ما تيسر منها وفحصها ومقارنتها والتعليق عليها.

كما حاول الباحث ـ جهد الطاقة ـ التقصى المنظم للحقائق العلمية التاريخية لاستنباط ما قد يعن عنها من معانى وأفكار تخدم أهداف الدراسة وتحقق أغراضها.

٥/٠ نطاق الدراسة وحدودها

تمتد هذه الدراسة اتغطى الكتب بكافة أشكالها، والمكتبات على اختلاف أنواعها واحجامها، ويجب التنوية بادئ ذى بدء ان الكتب فى مفهوم الحضارة الاسلامية ـ قبل اختراع الطباعة ـ هى الكتب المخطوطة حيث كان العرب يستعملون كلمة "كتاب" للدلالة على الكتاب الذى يحمل بين طياته نصوصا مكتوبة سواء أكانت مكتوبة على ورق أو غيره من وسائط حمل المعلومات كالرق مثلاً، كما تجدر الاشارة أيضاً إلى ان كلمتى "مكتبة" و "خزانة الكتب" كانتا تستخدم كمترادفين للدلالة على أماكن حفظ الكتب واستخدامها.

وتغطى الدراسة من الناحية المكانية بلاد الأندلس بحدودها الجغرافية والسياسية المعروفة وقتذاك، أما من الناحية الزمنية فتمتد طيلة وجود العرب فى الأندلس ابتداء من الفتح الاسلامى لها وحتى خروجهم منها، وهى تصل الى حوالى ثمانية قرون (٧١١-١٤٩٢م)، وهى فترة مليئة بالمتغيرات السياسية والثقافية التى انعكست بدورها على الكتب والمكتبات.

وحاولت فى نطاق الحدود السابقة تقديم أكمل صورة ممكنة عن حركة الكتب والمكتبات فى الندلس، ولا أدعى الكمال لهذه الدراسة ــ فما كل ما يتمنى المرء يدركه ـ فقد عجزت مصادر الدراسة فى بعض الأحيان عن تحقيق مثل هذا الكمال المنشود.

٦/٠ فصول الدراسة ومباحثها

عمد الباحث إلى توزيع عناصر هذه الدراسة الى مجموعة من المباحث، تسبقها، مقدمة وتلحقها خاتمة.

تناولت المقدمة: تمهيدا يبين أهمية التراث الاسلامى فى حياة الأمة، وموضوع الدراسة وأهميتها وهدفها ثم المنهج المتبع فى دراسة الموضوع، ثم نطاق الدراسة وحدودها.

وتناول الفصل الأول: الحركة العلمية والثقافية فى الندلس باعتبارها المدخل المنطقى لدراسة حركة الكتب والمكتبات، حيث ارتبطت الحركة العلمية والثقافية بالكتب من ناحية وبالمكتبات من ناحية أخرى، وكان من الضرورى فى بداية هذا الفصل الالماع بلمحة يسيرة عن تاريخ وجغرافية الأندلس للوقوف على الأوضاع السائدة المتعلقة بمكانية الموضوع محل الدراسة، ثم يلى ذلك الحديث عن الحياة العلمية والأدبية فى الأندلس من حيث مفهومها ومجالاتها واعلامها وعوامل ازدهارها، ثم نتاجها الفكرى كمدخل طبيعى للفصل الثانى، وأخيراً أثرها على الحضارة الأوروبية.

كما تناول الفصل الثانى: الانتاج الفكرى الأندلسى (الكتب) من حيث نشأتها وطرق تأليفها، وانتاجها وتجارتها وتوزيعها، والعاملين فى عملية الانتاج هذه، وأخيراً دراسة للاتجاهات العددية والنوعية لهذا الانتاج الفكرى.

ويأتى الفصل الثالث: ليتناول بالوصف والتحليل المكتبات فى الأندلس، وشغف الأندلسيين بجمع الكتب، ومصادر بناء المجموعات، وتنظيمها، والعاملين بها، ثم التركيز بعد ذلك على أهم المكتبات الا وهى مكتبة قرطبة، ثم أخيراً بيان مصيرها وما آلت اليه هذه المكتبات.

وأخيراً أرجو أن أكون قد وقفت فى تحقيق الاهداف التى قصدت اليها من هذه الدراسة، فان اصبت فبتوفيق من الله، وان كانت الأخرى فهى جهد المقل، والكمال فى كل شئ أمر لا يدرك، والأمل أن أعود اليها لاضيف جديداً أو أصوب رأيا.

والله أسأل أن يكتب لنا التوفيق والسداد ويهيئ لنا من أمرنا رشدا، هدانا الله إلى سواء السبيل وألهمنا صائب القول ووفقنا لصالح العمل، آمين، وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

مدينة نصر فى ديسمبر ١٩٩٧ **د. حامد الشافعى دياب**

الفصل الأول

الحركة العلمية والثقافية فى الأندلس

- لمحة تاريخية وجغرافية عن الأندلس
- الحياة العلمية والأدبية فى الأندلس
- عوامل ازدهار الحركة الفكرية فى الأندلس
- العلوم وفنونها فى الأندلس
- اثر الحضارة العربية فى الأندلس على أوروبا



الفصل الأول

الحركة العلمية والثقافية فى الأندلس

ارتبطت حركة التأليف وانشاء المكتبات فى الأندلس أرتبطاً وثيقاً بالحركة العلمية والثقافية بها، دارت فى فلكها وجودا وعدما، مدا وجزرا، انتشارا وانحسارا، فكلما ازدهرت هذه الحركة كلما زاد الانتاج الفكرى وتنوعت مباحثه وتعددت موضوعاته، وبالتالى تنشط المكتبات وتزداد عددا وتتسع حجما، والعكس صحيح، لذا وجب التعرض - بشئ من بسط القول - للحركة العلمية والثقافية السائدة فى البلاد للوقوف عليها وبيان مدى تأثيرها فى النهضة المكتبية فى الأندلس.

بيد ان الأمر يتطلب قبل أن يمضى بنا الحديث فى هذا المجال، أن نحدد المراد بالأندلس مكاناً وتاريخاً موطن هذه الحركة الفكرية، ولو بشئ من غيض الفيض.

١/١ لمحة تاريخية وجغرافية عن الأندلس

الحديث عن تاريخ الأندلس طويل، طويل فى حكم الزمان لان بيننا وبين عصره ما يزيد عن خمسة قرون، وطويل فى حكم المكان لأن الأندلس قابع هناك خلف بحار ووديان، وليس فى الدنيا أرض تتحدى الصبر وقوة الاحتمال كهذه الأرض التى أقام عليها أجدادنا مجداً خالداً وحضارة عظيمة.

والأندلس Andalusia فى الأسبانية اندالوشيا، وهى فى الأصل فندالوشيا، سميت بذلك من الفندالة وهى أمة نزلتها فى القرن الخامس للميلاد[1].

والأندلس كانت أول البلاد التى فتحها المسلمون من بلاد اسبانيا، وقد اطلقوا اسم الأندلس على ما شمله سلطانهم من المناطق التى فتحوها وضموها الى امبراطوريتهم من شبه جزيرة ايبريا، من باب تسمية الكل باسم البعض، ولم يشمل هذا السلطان شبه الجزيرة كله دائما، وانما مر بموجات متعاقبة من المد والجذر.

وقد حدد البعض أنهم أطلقوها على الجزء الجنوبى من أسبانيا، ويقع جنوبى نهر الوادى الكبير، وهو يضم سبع مدريات هى قرطبة، اشبيلية، قادش، جيان، غرناطة، مالقة ولبة (اويلبا) هذه المديريات السبع كانت تسمى اندالوشيا(٢).

وعندما بدأت رقعة الاسلام تتقلص تدريجياً، أخذ هذا الاسم يطلق على الاراضى التى بقيت فى أيدى المسلمين، حتى اقتصرت تسمية الأندلس على مملكة غرناطة، آخر معقل للاسلام فى شبه الجزيرة.

والأندلس عند أهله اندلسيان: فالأندلس الشرقى ما صبت أوديته إلى البحر الرومى (البحر الأبيض المتوسط) وذلك ما بين مرسيه الى سرقسطة، والأندلس الغربى ما صبت أوديته إلى البحر المعروف بالبحر المحيط (المحيط الأطلسى).

ويضيف بعض المؤرخين إلى هذا التقسيم قسما ثالثاً، هو وسط الأندلس، وكان يضم من المدن الكبرى مدن: قرطبة، وطليلة، وجيان، وغرناطة، والمرية، ومالطة، أما شرق الأندلس ففيه من المدن الكبرى مرسليه، وبلنسيه، ودانية، والسهلة، وسرقسطة، أما غرب الأندلس فيشمل اشبيلية، وماردة، وأشبونه، وشلب(٣).

وتاريخ الأندلس قديم للغاية يرجع إلى القرن العاشر قبل الميلاد، وليس هنا مجال الغوص فى هذا التاريخ، ولكن نكتفى بالاشارة الموجزة الى تاريخ المسلمين فى الأندلس وهو بين القصيد فى دراستنا هذه.

عندما تقدمت جيوش المسلمين لفتح بلاد العرب، لم تقف أمامها قوى مناوئة، ولم تلق مقاومة عنيفة واستطاعت أن تستولى – دون كبير عناء – على معظم مدن المغرب، وكان من نتائج هذا الفتح المبين أن دخلت امة البربر فى الاسلام افواجاً، وأخلصوا له وتحمسوا للجهاد فى صفوف المسلمين، فأصبحت لهم قوة اعتمدوا عليها فى فتح الأندلس.

وما لبثت بلاد المغرب، بعد أن تم فتحها على يد موسى بن نصير (٨٦-٩٢هـ) ان اصبحت معبرا عبره المسلمون إلى شواطئ اسبانيا الجنوبية تحت امرة القائد البربرى طارق بن زياد.

انطلق طارق بن زياد فى ربيع عام ٧١١م فى اتجاه الشمال من الجبل الذى عرف باسمه فيما بعد ومعه اثنا عشر الف مسلم إلى "ريودى بارييت" فى جنوب "كاديز" حيث تقابل مع الجيوش المتحدة لملك اسبانيا "لذريق" آخر ملوك القوط، وهنا اطلق ابن زياد صرخته المشهورة مخاطباً جنوده: "العدو من أمامكم والبحر من ورائكم فأين المفر "، ثم سحب سيفه وقال: الدنيا اختيار واحد وهو الفوز. وانتصر المسلمون انتصارا حاسما مما أحدث الهزيمة فى جنود "لذريق" عام (٩٢هـ ٧١١م)(٤).

ثم جاء موسى بن نصير عام(٩٣هـ ٧١٢م) فى جيش ضخم العدد والعدة ومضى بدوره يفتح مدن الغرب ويقضى على كل أثر للمقاومة. وهكذا تعاون القائدان المسلمان على فتح بلاد اسبانيا وسقطت أمامها مدنها الواحدة تلو الأخرى.

ومنذ هذا الفتح يبدأ تاريخ العرب فى الأندلس الذى أستمر حوالى ثماينة قرون (٧١١م ـــ ١٤٩٣م). وهناك بعض المؤرخين والدراسين يقسمون هذا التاريخ إلى فترات زمنية قد تصل إلى سبع(٥) ، ولكننا لا نحبذ مثل هذا التقسيم لاعتبارات كثيرة منها أن التاريخ ما هو الا حلقات زمنية متصلة، ومنها أن العوامل المؤثرة فى التاريخ متداخلة متراكمة من الصعب فصلها عن بعضها، ومنها أن مثل هذا التقسيم اصطناعى بالدرجة الأولى، ومع ذلك فالباحث لا ينكر أن هناك بعض الأحداث ذات سمات بارزة تترك آثارا خاصة يحسن أخذها بعين الاعتبار، قد تبلغ من الأهمية أن تسمى الفترة الزمنية باسمها.

ولكن يجب الا يغيب عن البال امران على درجة كبيرة من الأهمية ولهما تأثيرهما المباشر فى النهضة الفكرية فى البلاد:

الأول: ان عصر الخلافة الذى يمتد حوال ثلاثة قرون (١٣٨هـ ٤٢٠هـ) هو أفضل فترات تاريخ المسلمين فى الأندلس، حيث اتسم بخصائص جمة، وهو يعتبر بحق عصر استقرار البلاد داخلياً، مما جعل الخلفاء يوجهون كل جهودهم وجل اهتماماتهم نحو التقدم الفكرى والحضارى الذى اتضحت معالمه منذ ذلك، فشيدوا الدور وأقاموا الجسور وبنوا المساجد والمدارس، وتوطد أركان الدولة سياسيا وحضاريا، وبلغت الأندلس فى هذه الفترة ذروة التقدم والرقى، وأصبحت قرطبة ـــ حاضرة البلاد ـــ مصدر الحضارة وموطن العلوم والفنون، وشهدت عصراً من الرخاء والثراء العلمى لم تشهده غيرها من ذى قبل، وليس معنى هذا أن بقية العصور أو بقية المدن الأندلسية لم يكن فيها نهضة فكرية، بل كان فيها ولكن بقدر محدود.

الثانى: ان تاريخ الأندلس يمتد ليشمل تاريخ شمال أفريقيا وبخاصة المغرب الأقصى، حيث ارتبطا ارتباطا وثيقاً، فالموقع والظروف الجغرافية للمنطقتين لعباً دورهما فى التقريب بينهما، وأصبح تاريخ حضارة المغرب الأقصى والأندلس وحدة متكاملة، لذا نجد أن بعض المؤرخين يطلقون عليها - بحق اسم - العدوتين.

وختاماً لهذا العنصر، تجدر الاشارة الى أشهر مدن الأندلس فى العصر الإسلامى للبلاد، والتى لعبت دوراً عظيماً فى النهضة الفكرية، وهذه المدن كما يذكرها الباحثون والدارسون ويفيضون الحديث عنها هى: قرطبة، الزهراء، طليلة، المية، مرسية، ماردة، سرقسطة، بلنسية، بطليوس، اشبونة، اشبيليه، مالقه، غرناطة، هذه المدن كانت مراكز اشعاع حضارى وثقافى ومدائنا للعلم ومقصداً للعلماء والفقهاء من كل حدب وصوب ومن كل فج عميق.

٢/١ الحياة العلمية والأدبية فى الأندلس

يقصد بالحياة العلمية والأدبية ما حققه مسلمو الاندلس من ضروب التقدم في ميادين العلوم والآداب والفنون، حيث استقر المسلمون فى الأندلس نحو ثمانية قرون (٧١١-١٤٩٢م) حملوا خلالها مشعل الآداب والعلوم والفنون.

ومما لا شك فيه أن دخول الاسلام بلاد الأندلس، كان بداية تاريخ انطلقت منه احداث هامة اتاحت اكتمال دولة الاسلام الكبرى وساهمت فى اثراء حضارتها وثقافتها، كما مكنت الأندلس نفسه ان يتذوق طعم الايمان بالقيم الروحية والفكرية وان يضع لأول مرة فى تاريخه قواعد نظام سياسى واجتماعى واقتصادى قوامه الدولة المرتكزة على العقيدة الاسلامية.

وهكذا يعتبر الاسلام فى كل مكان وزمان، الارضية الفكرية التى تستمد منها شجرة المعرفة مقوماتها وترتوى من منابعها، فالاسلام يحث على معرفة كل مجهول، كما يدعو إلى التفكير فى خلق الله وآياته الكونية.

لقد عاش الأندلس فى ظل نهضة فكرية أظلته، وهذا يرجع الى ازدهار الحياة الدينية وما دار حولها من مناقشات فكرية واتجاهات دينية ونتج عن ذلك تنوع فى الدراسات الدينية، وبجانب الحياة الدينية الحافلة كانت هناك الحياة الأدبية من أدب ولغة، والحياة العلمية من فلسفة وطب وعلوم وغيرها. وصارت المدن الأندلسية تزجر بطلاب العلم فى العلوم المختلفة ونشطت حركة التأليف، وصار للأندلس دوره الواضح فى تغذية الثقافية الاسلامية بما قدمْ من علم وعلماء.

ان تاريخ الحياة العلمية والأدبية فى الأندلس يعنى تاريخ العلوم العربية بصفة خاصة، وكتب الكثيرون فى هذا الموضوع من عرب ومستشرقين، لذا فاننا فى هذا العنصر سنشير إلى المعالم العامة للحياة الفكرية فى الأندلس دون الدخول فى التفاصل، ولنكتف اذن بالقدر الذى يحقق الهدف من دراسة هذا العنصر، ومن أراد المزيد فعليه أن يرجع إلى المصادر التى اثبتناها فى هوامش الدراسة.

بادئ ذى بدء تجدر الاشارة إلى أن العرب يعتبرون أكثر شعوب العالم تأثراً بالكلمة المكتوبة، بالرغم من انهم لم يستخدموا الكتابة على نطاق واسع فى حياتهم الاولى، وأغلب الظن أن هذا راجع إلى اسلوب حياتهم القديم الذى لم يكن يتسم بالاستقرار، لذا اعتمدوا على أسلوب النقل والاتصال الشفاهى فى حفظ اشعارهم وقصص بطولاتهم.

وما أن حل القرن السابع الميلادى حتى ظهرت حضارة جديدة فى شبه الجزيرة العربية، جاءت على يد التجار وسكان الحواضر الذين نقلوها وعلموها إلى المجتمعات القبلية. وتكاد تجمع كل كتب التاريخ على أن المعلقات الشعرية انما سميت بهذا الاسم لانها كانت مكتوبة بماء الذهب وتعلق على استار الكعبة ليقرأها الناس.

ولكن يمكن القول أن ظهور الاسلام ونزول الوحى بالقرآن الكريم كانا أكبر دافع لاهتمام العرب بالكتابة، ولعل معرفة الكتابة هى النعمة الكبرى التى ميز بها الله سبحانه وتعالى بنى آدم عن بقية المخلوقات، ومن هنا نجد أن أول ما نزل من القرآن الكريم هو "اقرأ" وهذه دعوة واضحة وصريحة للعلم والتعليم الذى وسيلته القراءة وأداته الكتابة.

وانعكس هذا الاهتمام الاسلامى على عكوف الامة الاسلامية على التدوين فاهتموا أولا "بتدوين كتاب الله وضبط آياته حتى لايلحن فيه غير العرب من المسلمين، ولهذا كان المصحف الشريف أول كتاب ظهر فى لغة العرب، ثم بدأت التآليف العربية تخرج إلى حيز الوجود قبل ان ينتصف القرن الأول الهجرى(٦).

بمقتضى ذلك الاهتمام والنشاط الفكرى، تكونت بكل مسجد مدرسة كانت تقوم بالعملية التعليمية خير قيام.

ولم يكد القرن الأول الهجرى يقارب نهايته (٩٢هـ ٩٦هـ) حتى وجد الاسلام مستقراً له فى بلاد الأندلس بعد أن تم فتح البلاد فتحاً اسلامياً على يد المسلمين كما اسلفنا من قبل.

بدأ السكان الأصليون فى الأندلس يدخلون فى دين الله أفواجاً بعد أن لمسوا العدل وروح التسامح والرأفة.

وفى هذا الجو من الحرية والسماحة والالتزام العلمى بدين الله عز وجل، نبتت وازدهرت الحركة الفكرية فى الأندلس لينعم بخيراتها وثمارها العالم اجمع.

٣/١ عوامل ازدهار الحركة الفكرية فى الأندلس

تضافرت عدة عوامل على ازدهار الحركة الفكرية فى البلاد، يمكن اجمالها يلى:

١ - **استقرار الاوضاع فى البلاد:** حيث تنمو - عادة - فى مناخ الاستقرار الحركة الفكرية ، وتترعرع فروعها حتى تصبح وارفة الظلال وتعطى اطيب الثمار الفكرية، وقد تمخض الاستقرار فى البلاد عن كم ضخم ومتنوع من الانتاج الفكرى الأندلسى فى جميع فروع المعرفة البشرية السائدة وقتذاك.

٢ - **تشجيع ولاة الأمر للعلم والعلماء:** فقد تبوأ العلماء فى الأندلس مكانة مرموقة، حيث كرم الخلفاء العلماء فى كل تخصيص وشجعوهم وقربوهم اليهم، ومن هذا نرى ان حب ولاة الأمر للعماء جعلهم ينصرفون إلى البحث والتحصيل والتألف، وخاصة أن ذلك سيرفع اقدارهم من جهة، فضلا عن الغنى والثراء من جهة أخرى[٧].

٣- **الحماس الذى ابداه ولاة الامر** في بناء المؤسسات التعليمية من مساجد ومدارس وغير ذلك مما كان له اثر بالغ في دفع الحركة التعليمية في البلاد.

٤- **الاتصالات العلمية والثقافية** بين علماء الأندلس وعلماء المشرق في مصر وبغداد وغيرهما من البلاد الاسلامية، كان له أعظم الاثر في دفع الحركة الفكرية، واحداث ثورة ثقافية.

٥- **انتشار التعليم:** فالتعليم في الأندلس كان اجباريا وبالمجان، ونتيجة لذلك أصبح معظم السكان يعرفون القراءة والكتابة، وكان يجرى على الطلبة امتحان لتخريج المبرزين على شكل نظام الاجازة.

٦- **انتشار اللغة العربية:** حيث اصبحت لغة المكاتبات واللغة الرسمية للبلاد في معاملاتها وشئونها، وزاد من انتشارها افواج العلماء القادمين من خارج البلاد، كما ان ثقافة ولاة الامر كانت تقوم على الثقافة الاسلامية ووسيلتهم في ذلك اللغة العربية، كما ان المناهج الدراسية التى وضعها ولاة الامر في المؤسسات التعليمية والمبنية على كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ)، وسع من انتشار اللغة العربية لغة القرآن والدين.

٧- **اختراع الورق:** عرف العرب الورق عن طريق اتصالهم بالصينين الذين كانوا قد اكتشفوه بنهاية القرن الأول الميلادى، وبعد الفتح العربى لآسيا الوسطى، انتشر استخدام الورق في جميع انحاء العالم الاسلامى، وقد اسهم في انتاج الكتاب العربى على نطاق واسع، ونشطت صناعة الورق لسد حاجات التأليف والعلماء وطلاب العلم وحاجات الدولة المختلفة. وتعدد مراكز صناعة الورق فقد كان في الأندلس مصانع غرناطة ويلنسية وطليطلة يصنع فيها أجود أنواع الورق.

٨- **انتشار حركة الترجمة:** قامت في عدة مدن اسبانية حركة لترجمة المؤلفات الاسلامية، وتعتبر مدينة طليطلة أهم هذه المدن وانشطها لأنها كانت عامرة بالمكتبات العربية اكثر من بقية المدن الاخرى(٨)، ولم تقف حركة الترجمة من العربية إلى اللغات الأخرى، بل كان العكس أيضا، فقد نقل العرب إلى اللغة العربية كل ما وجدوه من تراث الامم الغابرة واضافوا إليه كل ما في وسعهم من قدرة على الابتكار والتجديد، وظلت

هذه المنقولات وتلك الاضافات امانة في ايديهم حتى اسلموها إلى اوروبا في القرن الثانى عشر، وهكذا كان المسلمون موصلا جيدا للثقافة (٩).

هذه العوامل وغيرها مما يماثلها دفعت الحركة الفكرية في جميع أنحاء البلاد إلى الإمام، وخاصة المدن الكبرى، ففى غرناطة ــ يوم كانت قاعدة البلاد ــ قامت فيها مؤسستان علميتان بمواصلة اداء وظيفتها:

أولاهما: الجامع الاعظم الذى تنتظم فيه حلقات الدرس، ويقصد للتعلم كما يقصد للتعبد، وكان اشهر المدرسين به ابو بكر بن جزى (١٠).

وثانيهما: المدرسة النصرية التى تعد من مفاخر السلطان أبى الحجاج يوسف الأول، وقد انشأها في منتصف القرن الثامن على يد حاجبه أبى النعم رضوان، واوقفت عليها أموال للانفاق عليها، كان اشعاعها العلمى متواصلا إلى آخر عهود المسلمين بالأندلس، وكان من أشهر المدرسين بها ابو جعفر أحمد بن خاتمة الانصارى (ت٧٧٠هـ) وأبو سعيد فرج بن لب (ت٧٨٢هـ) وأبو اسحاق إبراهيم بن فتوح العقيلى (ت٨٦٧هـ)(١١).

وكما تجلى النضال العلمى في التدريس تجلى ايضاً في الاقبال على تصنيف المصنفات في فنون علمية مختلفة، وفي القيام بالابحاث والمناظرات والمراجعات مما اتاح احتكاكا فكريا مثمراً.

ولم تقتصر هذه النهضة العلمية فى الأندلس على رجالها دون نسائها بل احتلت المرأة الأ‌ندلسية مكانة مرموقة فى المجتمع، وشاركت فى كثير من المجالات العلمية، وكانت تتمتع بقسط وافر من الحرية، وقد اشتغل بعضهن بالعلوم والآداب، ومن النساء المثقفات التى أشارت اليهن المراجع حفصة

الحاج الركونى الشاعرة الأديبة المشورة، وكـانت علـى ثقافـة عاليـة، وكـانت أساتذة وقتها، وكانت تقوم بالتدريس للنساء(١٢)

و يشير البعض إلى ان عددهن بلغ ثمان وستين امراة من اعلام النساء(١٣)، ويذكر عبد الواحد المراكشى ـ نقلا عن كتاب ابن فياض ـ عن مدينة قرطبة، أنه كان فى الربض الشرقى منها مائة وسبعون امرأة تنسخ المصاحف بالخط الكوفى ، فكم كان عدد الموجودات فى باقى أحياء قرطبة(١٤) ومن المعروف أنه كان فى قرطبة واحد وعشرون ربضا، ان الوقوف على هذا العدد الكبير يعكس الصورة التى كانت عليها المرأة فى الأندلس ونشاطها.

فى هذا المناخ العلمى تكونت ثلة من العلماء فى الأندلس ساهمت فى اثراء المكتبة الاسلامية بمؤلفات هامة، وأنشأت قنوات اتصال علمى برجال المراكز العلمية، وأقبلت على المعارف والعلوم تكرع من مناهلها.

١/٤ العلوم وفنونها فى الأندلس

أفرزت الحركة العلمية والأدبية فى الأندلس مجموعة من العلوم والمعارف لم تكن موجودة من ذى قبل، كانت بمثابة تتويج للنشاط الفكرى الذى عم البلاد، حيث تبلور الشعور بالذات الثقافية الأندلسية، وزاد الانفتاح الفكرى، وأخذت المباحث العلمية عمقاً أكبر .

وكان القرن الرابع الهجرى منطلق النهضة العلمية العربية فى الأندلس، التى بلغت شأوا كبيراً من النضج والإزدهار، ويرجع هذا الى عدة عوامل كثيرة تمت الاشارة الى بعضها سلفا، ويقف على قمة هذه العوامل اهتمام الخلفاء الأندلسيين انفسهم بالنشاط الثقافى والفكرى فى البلاد، حيث لعبوا دورا حاسما فى تنشيط الحياة العلمية وتشجيع العلماء.

وفى الحقيقة لم يأل الخلفاء أو الامراء ـ الذين تعاقبوا على حكم الأندلس طيلة ثمانية قرون (٧١١-١٤٩٢م) ـ جهدا فى المضمار الثقافى من ناحيتى التشجيع والمشاركة، ويحتل الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) مكانة فريدة بين هؤلاء.

ويكفى القول هنا أنه (أى الحكم) كان يستقدم الكثيرين مما يبرزون فى نواحى العلم المختلفة ليسمع منهم أو يكلفهم بالتأليف أو التصنيف سواء أكانوا أندلسيين يعيشون خارج قرطبة أو كانوا من خارج الأندلس وهكذا استقدم عراقيين وشاميين ومصريين وافارقة ومغاربة وصقليين[١٥].

وقد أحاط الحكم من علم هؤلاء بمعارف شتى سواء فى العلوم الانسانية والاجتماعية أو العلوم البحتة والتطبيقية حسب مفاهيمنا العصرية، ولكن الذى برز فيه وانتج وكتب كان الانساب، وبلغ انتاجه فيه من الدقة والاتقان حدا جعله حجة عند الأندلسيين، بدليل أننا نجد أكثر من واحد من الكتاب الأندلسيين عندما يريد أن يقدم دامغة على صحة الذى يذكره للشخصية التى يترجم لها، يقول: قرأت ذلك بخط الحكم المستنصر وهو حجة فى الأندلس"[١٦].

ومن الممكن أن نرجع مثل هذا الاهتمام بالانساب الى عدة عوامل هى:

١ ـ الاهتمام بالنسب والتركيز عليه وخاصة فى تأليف كتب التراجم.

٢ ـ الامتيازات التى نالها أولئك العرب فى الأندلس ومحاولة الكثيرين تلفيق نسب لهم، مما أدى الى البحث فى أنساب العرب.

٣ ـ اعتبار النسب قيمة تحدد مكانة الانسان الاجتماعية.

٤ ـ اتساع ميدان النشاط السياسيى الأندلسى ليضم شمال أفريقيا وشمال اسبانيا، مما اقتضى التعرف على سكانها ومعرفة انسابهم لرسم السياسة ومساعدة الجيوش.

ولم يكن اهتمام الحكم المنتصر بالعلوم الأخرى، بأقل من اهتمامه بعلم الانساب، فعلوم اللغة العربية وآدابها من نحو وصرف ومعاجم، وشعر وزجل، ورسائل أدبية، وعلوم القرآن من قراءات وتفسير وفقه، وعلوم الحديث من رواية واسناد، كل هذه العلوم أخذت حظها من الاهتمام فى بلاط الحكم، وكذلك علوم التاريخ والجغرافيا والفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضيات تطورت كل هذه العلوم تطورا طبيعيا كبيرا فى عصر الحكم.

وليس من الصعب تعداد وتفريد هذه العلوم وذكر وتسجيل المصنفات فى كل علم واسماء مصنفيها، ولكن من باب الاختصار سنكتفى بذكر الخطوط العريضة لهذه العلوم وتطورها دون البحث فيها تفصيلا، مع التوقف قليلا عند القمم البارزة فى كل منها، وتنتظم هذه العلوم على النحو التالى دون أى ترتيب اللهم الا حسب النشأة والظهور والأقدمية إلى حد ما:

١/٤ اللغة العربية وآدابها

كان انتشار اللغة العربية فى البلاد الأندلسية إحدى الدعامات التى قامت عليها النهضة العلمية فى البلاد، حتى غدت اللغة الرسمية للبلاد فى مكاتباتها ومعاملاتها، فبالاضافة الى أن اللغة العربية كانت لغة أولى الأمر كانت أيضاً لغة التعليم فى المؤسسات التعليمية المختلفة، وقد زاد من انتشارها أفواج العلماء القادمين من خارج البلاد الذين أثروا الحياة الفكرية بعيون المصنفات وأمهات الكتب، فها هو أبو على القالى البغدادى الذى قاد فى الأندلس نهضة لغوية ونحوية حصيفة... وخلفه جيل بلغ ذروة الشهرة

من أمثال ابى بكر بن القوطية ومحمد بن الحسن الزبيدى صاحب كتاب "طبقات النحويين" وهما من تلاميذ القالى"[١٧].

ومن الأمور الجديرة بالذكر فى هذا المضمار ما نجده من اهتمام الأندلسيين **بالنحو** البصرى بعد أن صبوا جل عنايتهم فى السابق على النحو الكوفى، وافتتح محمد يحيى المهلبى الرياحى الاهتمام بكتاب سيبويه، كذلك كان هذا الكتاب مما حمله ابو على القالى الذى كان يجنح فى الأندلس إلى المذهب البصرى وينافح عنه مناظرا ومجادلا[١٨].

واذا انتقلنا إلى أشكال الأدب العربى وفنونه لوجدنا اهتماماً كبيراً **بالشعر** الأندلسى، حيث فتن القوم بالمنثور والمنظوم ولم تضق لهم فى ذلك ساحة وهم الذين استحدثوا الموشحات كنوع من انواع الشعر، ويشير ابن خلدون إلى أن المخترع لهذا النوع (يقصد الموشحات) بجزيرة الأندلس هو مقدم بن معافر الغريرى من شعراء الامير عبد الله بن محمد المروانى وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب "العقد"[١٩].

ويشتم من نص ابن خلدون أنه كان لكل ملك أو أمير فى الأندلس شعراؤه الذين يتبارون فى نظم القصائد فى مدحه والاشادة به "فمن شعراء المعتمد بن عباد ملك اشبيلية: ابن عماره، وابن اللبانة، وابن زيدون، ومن شعراء المعتصم بن صمادح: ابن الحداد، وابو الوليد النحلى، وأبو الفضل بن شرف"[٢٠].

وقد برز كثير من الشعراء فى الأندلس منهم: أحمد بن محمد دراج القسطلي، وابن عبد ربه، وابن هانئ، وابن زيدون، وأبو اسحق الاليبرى، وابن فرج الجيانى، وكثيرون غيرهم مما يفوق الحصر.

ولم يقتصر الشعر على الرجال من دون النساء، حيث كانت فى الأندلس شاعرات مجيدات منهن "حسناء التميمية" وأم العلاء بنت يوسف الحجارية، وام الكرام بنت المعتصم بن صادح، ومهجة القرطبية، وكلهن شاعرات من عصر ملوك الطوائف، وأشهرهن الشاعرة "ولادة بنت المستكفى بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله، وكانت واحدة زمانها، المشار اليها فى أوانها، حسنة المحاضرة، مشكورة المذاكرة، كانت مشهورة بالطهارة والعفاف، وفيها خلع ابن زيدون عذاره وقال فيها القصائد الطنانة – على حد تعبير المقرى – وعمرت طويلا وماتت عذراء سنة ٤٨٠هـ [٢١].

ومن أهم المؤلفات الأندلسية فى **اللغة العربية وآدابها** نجد – على سبيل المثال لا الحصر – الألفية لابن مالك الطائى الأندلسى (ت٦٧٢هـ) وكان قد الف كتاباً شافيا فى النحو سماه "الكافية الشافية" ثم لخصه فى أرجوزة ضمت الف بيت ضمنها جميع قضايا النحو والاعراب، والعقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى (٢٤٦-٣٢٨هـ) الذى جمع فيه انماطا من الاخبار والنوادر ومن روائع الشعر والنثر، وكتاب الامالى لأبى على القالى (٢٨٨-٣٥٦هـ) وهو مشرقى بغدادى، وقد طبقت شهرته الآفاق حتى بلغت الأندلس، فاستدعاه الخليفة عبد الرحمن الناصر لتأديب ولده الحكم، وقد أحسن الأندلسيون استقباله واستفادوا من علمه، والكتاب كما يدل عليه اسمه عبارة عن امال كان يلقيها على طلاب العلم فى جامع الزهراء بقرطبة كل خميس، ثم ضمت هذه الأمالى إلى بعضها فألفت هذا الكتاب، وهو يضم مختارات من الشعر والنثر وطرائف الأخبار والنوادر مع الاهتمام بقضايا اللغة العربية، وكتاب بهجة المجالس وأنس المُجالس وشحذ الذهن والهاجس لأبى عبد البر النمرى القرطبى (٣٦٨-٤٦٣هـ) وجمع فيه طرائف من الشعر والنثر

والأخبار والنوادر والأمثال والأجوبة مما يكون ذخيرة غنية تكون لمن حفظها عونا فى مجالسه وأنسا لمُجالسه .

١/٤/٢ العلوم الدينية والشرعية:

كانت للروح الدينية التى سادت بين سكان الأندلس منذ قيام الدولة الاسلامية بها، مع اهتمام ولاة الأمر بالدين ورجاله، أثر كبير فى إزدهار العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وأصوله وعلم الكلام ... الخ، اذ أقبل علماء الدين على الدراسة والبحث فى مختلف الأصول والفروع والشئون الدينية، مما دفع حركة التأليف فى البلاد، ونتج عنها كم ضخم من المؤلفات والمصنفات الدينية.

ففى مجال **التفسير** زاد الاقبال على دراسة القرآن الكريم باعتباره المصدر الأول للتشريع، وتألقت شخصيات علمية كثيرة، نخص بالذكر منهم "بقى بن مخلد" أكبر المفسرين فى الأندلس، أبو الحسن على بن محمد الغرناطى" و "أبو بكر محمد بن على المعافرى الشبتى المعروف بابن الجوزى"[٢٢]. ومن أهم كتب التفسير البحر المحيط لابن حيان الأندلسى (٦٥٤ ـ ٧٤٥هـ) والجامع لأحكام القرآن لعبد الله محمد بن أحمد القرطبى (ت ٦٧١هـ).

ومما يتصل بعلوم القرآن، **علم القراءات** الذى لاقى رعاية وعناية كبيرة من ولاة الأمر وممن اشتهر وألف فيه " أبو بكر يحيى بن محمد بن خلف الاشبيلى، ت ٦٠٢هـ" و " عثمان بن سعيد القرطبى" الذى بلغ الغاية فى القراءات، و " يحيى بن عوانة الفزازى القرطبى، ت ٣٦٦هـ" و " عبد الله بن محمد بن أحمد القرطبى، ت ٣٩٣هـ المعروف بالورشى" نسبة لشهرته فى قراءة ورش[٢٣].

أما **علم الحديث** فقد نال عناية فائقة أيضا من ولاة الامر باعتباره المصدر الثانى للتشريع، وكان موطأ الامام مالك فى الأندلس مدار الدراسات المتصلة بعلم الحديث، ومن علماء الحديث " محمد بن وضاح، ت ٢٨٧هـ" وكان عالماً بصيرا بطرقه، متكلما على علله، و "قاسم بن أصبع البيانى" وكان بصيراً بالحديث والرجال، وهناك الكثير مما يضيق بهم المجال هنا.

ونشطت الحركة **الفقهية** فى الأندلس، وكانت تدور حول المذهب المالكى، وظهرت طائفة من كبار الفقهاء مشهود لهم بالفضل، نذكر منهم: يحيى بن يحيى الليثى ت ٢٣٤هـ" الذى تولى فتياً الأندلس، وأساتذه "زياد بن عبد الرحمن اللخمى" أول من أدخل المذهب المالكى فى الأندلس، و"أبوالوليد محمد بن رشد ت ٢٥٠هـ" جد الفيلسوف ابن رشد، و "ابن عاصم" مؤلف كتاب تحفة الحكام فى نكت العقود والأحكام، وقاضى قرطبة "منذر بن سعيد البلوطى" وغيرهم[٢٤] . ويجب أن نذكر فى هذا المقام العالم الكبير ابن حزم الأندلسى (٣٨٤-٤٥٩هـ) صاحب المؤلفات الدينية الأصولية، منها على سبيل المثال: الاحكام فى أصول الاحكام، والفصل فى الملل والنحل وعنوانه ينبئ عن مضمونه، فهو كتاب يتحدث فيه المؤلف عن الملل والنحل الإسلامية، وغير الإسلامية، وغير الاسلامية ويناقشها من وجهة نظر اسلامية، كما يتحدث عن قضايا متعددة فى التوحيد وفى الفلسفة الاسلامية، ويعتبر ابن حزم من أوائل المتكلمين فى (علم الكلام) أو (العقائد)[٢٥].

ولم ينل **علم الكلام** عناية كبيرة عند أهل الأندلس فى بادئ الأمر، حيث كانوا يتخذون طريقة السلف منهجا ومسلكاً، وبالتالى فانهم لم يميلوا إلى الخوض فى علوم الكلام أو تشجيع دراستها، وكانوا يتهمون كل من يخوض فى علم الكلام بالكفر والالحاد، وقرر الفقهاء تقبيح علم الكلام وأنه بدعة فى

الدين ويؤدى أكثره الى اختلال فى العقائد، ومن ثم أمروا الناس فى البلاء بعدم الخوض فيه، وبالرغم من هذا فقد كان هناك نفر غير قليل ممن درسوا هذا العلم، وقد مر منهم ابن حزم، وكذلك الفيلسوف ابن رشد (٥٢٠-٥٩٥هـ) صاحب كتاب بداية المجتهد ونهاية المقصد، وكذلك الفتوحات المكية، وأحكام القرآن وكلاهما لابن عربى (٤٦٨-٥٤٣هـ) وفى هذا المقام لابد أن نذكر ابن مسرة (٢٦٩-٣١٩هـ) صاحب المذهب الباطنى.

وهكذا ازدهرت العلوم الدينية والشرعية فى الأندلس لقيام الدولة الإسلامية بها على أساس دينى، والمصنفات فى هذا المجال تكاد لا تحصى من كثرتها وما ذكرناه هنا لايعدو أن يكون أمثلة ليس إلا.

١/٤/٣ التاريخ والأنساب:

بلغ التأليف فى التاريخ مرحلة النضج وخاصة فى عصر الخلافة (١٣٨-٤٢٠هـ) وظهرت مؤلفات اصبحت من أمهات الكتب وتمثل مصادر أساسية معتمدة فى تاريخ الأندلس.

واعتمدت طريقة التأليف فى كتب التاريخ على النقل الشفهى وروايته فى الأندلس، كما اعتمدت طريقة التأليف فى كتب التاريخ على نقل الكتب وخاصة كتب رجال المشرق مثل كتاب تاريخ الملوك للطبرى، وكتاب تاريخ الخلفاء للمدائنى.

وخضعت المؤلفات التاريخية ـ بعد ذلك للتأثيرات المحلية اللاتينية "وربما جاء هذا التأثير المحلى فى التاريخ نتيجة معرفة الكثيرين فى الأندلس للاتينية وامكانهم الاطلاع على بعض الكتب التاريخية المكتوبة بها"[٢٦] ومع ذلك فقد ظلت المصنفات التاريخية فى الأندلس ـ فى أغلبها ـ تسير على

نمط المصنفات الشرقية، ومن أهم هذه الأنماط والفنون التاريخية التى ظهرت فى الأندلس نجد:

* **كتب الطبقات** التى شملت كل المشتغلين فى نواحى المعرفة البشرية تقريباً مثل طبقات النحويين واللغويين للزبيدى (٣١٦-٣٧٩هـ)، طبقات الأطباء لابن جلجل (ت ٣٧٧هـ)، طبقات شعراء الأندلس لعثمان بن سعيد الكتانى.

* **كتب الأخبار**: الخاصة بكل فئة من فئات العلماء مثل أخبار القضاة والفقهاء لابن عفيف، أخبار شعراء الأندلس لعباد بن عبد الله بن ماء السماء.

* **تاريخ المدن**: حيث تصنف الرجال حسب البلاد والمدن، مثل بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس للضبى (٥٩٩هـ)، المقتبس من أبناء أهل الأندلس لابن حيان القرطبى (٣٧٧-٤٦٩هـ)، المعجب فى أخبار المغرب للمراكشى (٥٨١-٦٤٧هـ).

***الأنساب**: لم يعرف التاريخ أمة أهتمت بأنسابها اهتمام العرب بها، والعرب بحكم تكوينهم القبلى أبدوا اهتماماً بالغا بأنسابهم، وظهر هذا الاهتمام جلياً فى الأندلس الذى ترجمة عملياً إلى ظهور مؤلفات كثيرة فى هذا المجال، ويمثلها باقتدار كتاب: جمهرة أنساب العرب لابن حزم (٣٨٤-٤٥٦هـ).

وهناك بعض المصنفات التى تجمع أكثر من نمط معاً، فنجد على سبيل المثال: فقهاء قرطبة لأحمد بن عبد البر، الكتيبة الكامنة فى من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة للسان الدين بن الخطيب (٧١٣-٧٧٦هـ) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (ت ٥٤٢هـ) الذى استعرض فيه معظم أدباء وشعراء الأندلس من معاصريه أو ممن أدركهم بعض معاصريه،

تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى (٣٥١-٤٠٣هـ) الذى يجمع فيه عدة فئات من التخصصات المختلفة من: العلماء والفقهاء والشعراء واللغويين فى الأندلس، والحلة السيراء لابن الأبار (٥٩٥-٦٥٨هـ) ويعتبر من غرر ما ألف فى تاريخ الرجال فى الأندلس وفى تاريخها الحضارى والفكرى.

ومن أهم المصادر التى غطت تاريخ العمران والحضارة فى الأندلس وبلاد المغرب بصفة خاصة وبقية أصقاع الامبراطورية الاسلامية بصفة عامة، كتاب العلامة ابن خلدون الموسوم بـ: كتاب العبر وديوان المبدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر.

ويلاحظ مما تقدم أن المصنفات التاريخية كانت تشتمل على تراجم سواء عامة أو متخصصة، كما اشتملت على كتب الانساب التى برع القوم فى التصنيف فيها وتركوا كما هائلا من هذه المصنفات التاريخية التى اعتمد عليها المحدثون فى دراساتهم وأبحاثهم عن تاريخ الأندلس وحضارته.

١/٤/٤ الجغرافيا والرحلات:

ثمة عوامل كثيرة كانت وراء دفع حركة التأليف فى الجغرافيا عند الأندلسيين، منها التأثير المشرقى الذى قدم أنماطا مختلفة من التأليف، ومنها أيضا تأثير الترجمة والاطلاع على المؤلفات اللاتينية ومنها ازدهار النشاط التجارى والملاحى وما استدعاه من ترحل بعض الأندلسيين مما ساعد على ظهور كتب الرحلات، ومنها رحلات العلماء للمشرق لطلب العلم والاستزادة منه.

هذه العوامل وغيرها مما يماثلها دفعت حركة التأليف فى الجغرافيا والرحلات ويجب ألا يغيب عن البال أن التاريخ صنو الجغرافيا ، لذا نجد أن

أكثر المؤلفات التاريخية يمتزج بالمؤلفات الجغرافية ، فبعض المؤلفين كانوا كثيراً ما يتعرضون لتاريخ المكان الذى يصفونه عندما يكتبون كتبا فى جغرافية البلدان والعكس هنا صحيح .

وتعتبر المؤلفات التى كتبها الأندلسيون فى وصف الأندلس خاصة وبقية أصقاع اسبانيا مصدراً أساسياً فيما يتعلق بهذه المنطقة ، للباحثين والدارسين فى أيامنا هذه ، ومن نافلة القول أن أسبانيا كانت تسمى – حينئذ – شبه الجزيرة الأليبرية ، ومن أهم المؤلفات نجد :

* فى مجال **الجغرافيا** :

يعتبر أحمد الرازى أول كاتب لجغرافية البلدان فى الأندلس ، فقد وضع كتابا يشتمل على وصف كامل لشبه الجزيرة الألبيرية من حيث تحديد مكانها وأقاليمها وشكلها ومناخها كذلك أنهارها وجبالها وجغرافيتها السياسية والبشرية ، وقد أصبح وصف الرازى لأسبانيا مصدراً أساسياً للجغرافيين العرب الذين تلوه على تعدد الفروع التى كتبوا فيها ، وقد ضاع أصل الكتاب وبقيت له ترجمة شبه كاملة باللغة البرتغالية نقلت إلى الاسبانية ، كما نشر ترجمة لها باللغة الفرنسية ليفى بروفنسال Levi Provencal بعنوان : La Description de L`Espagne de Razi [٢٧] ومن الكتب المهمة ولا زالت باقية كتاب " معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضيع لأبى عبيد الله بن عبدالعزيز البكرى الأندلسى (ت٤٨٧هـ) وهو عبارة عن معجم جغرافي حرص فيه مؤلفه على ضبط أسماء المواضع والأماكن التى وردت فى الحديث الشريف والشعر العربى وكتب التاريخ .

* فى مجال **الرحلات** :

نجد أن التقدم الذى حققه المسلمون الأندلسيون فى الملاحه كان دافعا لقيام نفر غير قليل من الأندلسيين بالرحلات ، ولعل أشهرها رحلة ابن جبير وقام بها الرحالة الأندلسى محمد بن أحمد بن جبير الكتانى (٥٤٠-٦١٤هـ) والكتاب تسجيل حى لما شاهده هذا الرحالة فى رحلته التى زار فيها مصر والجزيرة العربية والشام والعراق وصقلية .

٥/٤/١ العلوم البحتة والتطبيقية:

من الأمور التى يتشدق بها بعض المستشرفين، ويرددها من سار فى ركباهم من مقلديهم من بعض العرب المستحدثين، قولهم أن الحضارة العربية قصرت اهتمامها على الميادين الأدبية والانسانية والدينية دون سواها من العلوم الأخرى كالفلك والطب وما يماثلها من فروع العلوم البحتة والتطبيقية.

وهذا قول مردود عليهم جملة وتفصيلا، فقد عرفت الأمة العربية الاسلامية ـ ابان مجدها وازدهار حضارتها التى عمت الخافقين ـ كل العلوم التى تتباهى بها الدول المتقدمة فى عصرنا الحديث، بل الأكثر من ذلك اعتمدت جامعات الدول الغربية فى تدريسها عدة قرون على ما انتجته القريحة العربية فى مجالات الطب والرياضيات والفلك والكيمياء... الخ.

وبالرغم من أن العلوم الشرعية والأدبية والانسانية قد حظيت بالعناية والاهتمام فى العصور المختلفة للحضارة العربية، فإن فروع المعرفة العلمية الأخرى لم تهمل من جانب العلماء العرب، بل حظيت هى الأخرى باهتمامهم إلى حد كبير.

وحتى لا يلقى الكلام على عواهنه دون دليل، فلنذكر طائفة ـ ولو يسيرة ـ من هذه العلوم وتطورها في الأندلس.

*** الفلك والرياضيات:**

يعتبر الفلك من العلوم التى اهتم الاندلسيون بها فكان لذلك أثر فى انتشاره وتقدمه، وكان الدين الاسلامى وراء هذا الاهتمام ، حيث توجد اشارات كثيرة فى القرأن الكريم الى السماء و النجوم و الشمس و القمر والاجرام السماوية و افلاكها وسيرها ، و كثير من الفرائض الاسلامية يعتمد على الظواهر الفلكية، فالصلاة و الصوم والحج كلها تحتاج الى بيانات دقيقة عن سير الشمس و موقعها فى السماء و مغيبها وشروقها و معرفة ظهور الهلال و تحديد شهر الصوم ومعرفة أشهر الحج كل هذا يتطلب معرفة بالفلك .

ومن الذين نبغوا فى علم الفلك العالم الرياضى الفلكى " أبو القاسم المجريطى (٣٩٤هـ) وفى طليعة مؤلفاته : رسالة فى الاصطرلاب، و" أبو القاسم أصبع بن السمح " ومن مؤلفاته : المدخل الى الهندسة فى تفسير اقليدس ، وكتاب الاصطرلاب، و "أبو القاسم المهرى " والزهراوى " و "أبو القاسم بن الصفار" وغيرهم كثير [٢٨]

وكانت الرياضيات تشمل طائفة من العلوم مثل : العلوم العددية التى تبحث فى معرفة خواص الاعداد ، وصناعة الحساب،و الجبر و المقابلة ، والمعاملات أى تصريف الحساب فى معاملات المدن فى البيانات و المساحات و الزكوات - على حد تعبير ابن خلدون – و اشتهر أهل الاندلس فى هذه الفروع ولهم فيها تآليف كثيرة من أمثال الزهراوى صاحب كتاب المقابلات عن طريق البرهان، وأبى مسلم بن خلدون من أشراف اشبيلية وكان عالما فى الرياضيات و المجريطى و أمثالهم[٢٩]

*الكيمياء:

وعلم الكيمياء ـ كما يفسره ابن خلدون ـ "علم ينظر فى المادة التى يتم بها كون الذهب و الفضه بالصناعة ،ويشرح العمل الذى يوصل الى ذلك ، فيتصفحون المكونات كلها ،بعد معرفة أمزجتها وقواها، لعلهم يعثرون على المادة المستعدة لذلك ....[٣٠] وقد اشتغل أهل الأندلس بالكيمياء واشتهر منهم كثيرون، نذكر منهم أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطى (من مدريد) ويعتبر شيخ الأنداسيين فى علم الكيمياء، وقد ألف كتابا سماه "رتبة الحكيم" كما نبغ فى هذا التخصص أبو القاسم عباس بن فرناس أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة، وهو الذى احتال فى تطير جسمانه، وقد صنع فى بيته قبة نشبه السماء وزودها بالآلات الخفيفة التى تحدث البرق والرعد وجعل فى أعلاها نجوماً وغيرها تبدو للناظر حقيقة[٣١].

* الطب والصيدلة:

لم يتوقف النشاط العلمى فى الأندلس عند حدود ما أخذوه عن اليونان من العلوم الطبية، بل نظموه ودرسوه دراسة منهجية وأضافوا اليه ملاحظاتهم، كما وصفوا الكثير من الأمراض التى لم يعرفها اليونانيون.

ونبغ فى الطب وما يلحق به من علوم كالصيدلة والجراحة والأدوية، فى الأندلس ثلة من العلماء المرموقين، نخص بالذكر منهم أحمد بن اياس القرطبى الذى يعتبر أول من اشتهر فى الطب فى الأندلس، وأبا عبد الله محمد بن عبدون العذرى القرطبى مصنف الأدوية المفردة، ومحمد بن فتح طملون الذى برع فى الطب براعة علا بها أسلافه واختص بعمل المراهم، وأبا القاسم الزهراوى الذى أتخذه الحكم المستنصر طبيباً خاصا له، وأبا داود سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل صاحب كتاب تفسير أسماء الأدوية

المفردة من كتاب ديسقوريدس، وابن البيطار وله عدة مصنفات فى الطب لم يسبق إليها منها كتاب الجامع فى الأدوية المفردة وكتاب الأفعال الغريبة والخواص العجيبة(٣٢).

وقد استفاد الأوربيون من المصنفات الطبية الأندلسية وترجموا أغلبها إلى اللاتينية، مثل مؤلفات الزهراوى (٩٣٧-١٠١٣م)ككتاب "التصريف لمن عجز عن التأليف" وهو أشهر كتبه اطلاقاً، ومؤلفات ابن زهر (ت١١٦٢م) ولعل أجل كتبه "التيسير"، وكذلك مؤلفات ابن جلجل وابن البيطار، وعلى مؤلفات هؤلاء الأطباء الأندلسيين اعتمدت أوروبا فى تدريس الطب وممارسته مدة تزيد على خمسة قرون، وظلت هذه المؤلفات سارية المفعول فى الطب الأوربى حتى القرن السابع عشر.

ومن الطرائف الجديرة بالتسجيل هنا أن الحكم المستنصر أنشأ ما يسمى بـ "ديوان الأطباء" وهو يشبه "نقابة الأطباء" فى عصرنا الحاضر، حيث كان يقيد فيه اسم كل طبيب يحترف مهنة الطب والصيدلة ويزاولها، فإذا ما ارتكب خطأ يتوجب العقاب أسقط اسمه من الديوان(٣٣).

***الزراعة والنبات**

خطت العلوم الزراعية فى الأندلس خطوات واسعة، حيث كانت الزراعة عماد الحياة الاقتصادية فى تلك البلاد، وكانت الزراعة تسمى فى ذلك الوقت باسم "الفلاحة".

وقد كثرت كتب الفلاحة الأندلسية وألف فيها العلماء مصنفات قيمة ويكفى أن نشير إلى عبد الرحمن بن وافد الذى يعتبر طليعة علماء الأندلس فى هذا المجال والف رسالة هامة فى علم الفلاحة ما لبثت أن ترجمت الى اللغة الكاتالونية(٣٤).

كذلك نجد فى طليعة هذه المؤلفات كتاب الفلاحة لأبى زكريا بن العوام الاشبيلى (ت٥٨٠هـ) الذى ترجم مرتين الأولى إلى الأسبانية عام ١٨٠٢م والثانية الى الفرنسية عام ١٨٦٤م، وهذا الكتاب أشبه بدائرة معارف تاريخية عن الفلاحة، حيث يعطى فكرة شاملة عن ازدهار الفلاحة فى الأندلس الإسلامية[٣٥].

ويلاحظ أن موضوعات العلوم البحتة والتطبيقية كان بينها ارتباط وثيق لدرجة التداخل بين بعضها والبعض الآخر، فكثيراً كان يجمع العالم بين أكثر من علم، فكان الطبيب كيميائيا وكان الصيدلى طبيباً وكان الفلكى مهندساً وكان المهندس من علماء الرياضيات وهكذا، لذا يصعب علينا أن نفرق بين هذه العلوم أو حتى بين المشتغلين بها بفوارق حدية.

وإذا انطلقنا فى بحث العلوم وفنونها عند الأندلسيين، وحاولنا أن نسجلها اسما ونحصيها عدداً، فقد ينتهى بنا هذا الى ما لانهاية، لذا نكتفى بما أوردناه و سجلناه من أسماء العلوم وفنونها ،وما جردناه من بعض ما صنف فيها من أمهات الكتب - وهو لا يعدو ان يكون غيضا من فيض - لاعطاء صورة صادقة لما كانت عليه الحياة العلمية و الادبيه فى الاندلس .

٥/١ أثر الحضارة العربية فى الاندلس على أوروبا

إن الحضارة التى يشهدها العالم اليوم منبثقة من الدول الاوربية، ليست وليدة هذه الدول فحسب بل هى وليدة شعوب العالم كافة، التى أسهمت فى الحضارة ، وكان من بين هؤلاء المساهمين العرب و المسلمون الذين كان لهم الفضل الكبير فى النهضة الاوربية الحالية، فقدموا لاوروبا فى بدايه نهضتها خلاصة تجاربهم وما توصلوا اليه فى شتى علومهم و فنونهم .

انتقلت العلوم العربيه إلى أوروبا عن طريق منافذ كثيرة أهمها الاندلس،فكان الاندلس يزخر بما فيه من مدارس وجامعات ونهضة حضارية

فى كـل المجـالات . ولا ينكـر البـاحثون و المؤرخـون الاجـانب أن حضـارة الاندلس كتبت صفحة من أروع صفحات التاريخ العقلى لاوروبا فى العصور الوسطى حيث كانت تخيم على أوروبا وقتذاك غلالة كثيفة من الجهالة .

ومن الفخر الاشارة هنا إلى أن صناعة الورق لم تبدأ فى أوروبا الابعد القرن الثانى عشر الميلادى بعد أن أدخلها العرب الى اسبانيا،واخذتها أوروبا عن أسـبانيا ،فعن عـرب صقليـة تعرفـت أوروبـا علـى هـذة المـادة (الـورق) الكثيرة النفع و التى هى فى الحقيقة إحدى دعائم الثقافة و الحياة الفكرية[٣٦]

لقد تركت الجامعات الاسـلامية بصمـات واضحـة علـى حيـاة المجتمـع الاسلامى و استجابت لمتطلبات العصـر الـذى نشـأت فيـه، وامتـد أثرهـا إلـى أوروبـا ،فقـد أحـدث تدفـق العلـوم و المعـارف الاسـلامية ثـورة فـى الفكـر الاوروبى منذ القرن الثانى عشر الميلادى، وهى الثورة التـى تمخضـت عـن مولد الجامعات الأوربية نفسها، ثم اعتماد هذه الجامعات ـ لعدة قرون ــ فـى مناهجها ومواد دراستها وكتبها على الانتـاج الفكـرى الـذى قدمـه لهـا علمـاء المسلمين بالأندلس.

ويتضـح أثـر الجامعـات الإسـلامية علـى الفكـر الأوروبـى فـى مجـالين رئيسيين هما:

أولا: مجـال النظـم والتقـاليد الجامعيـة: فنجـد أن نظـام المعيديـن الـذى عرفته الجامعات منذ العصور الوسطى ـ والذى لا يزال قائماً حتـى اليـوم ــ أخذته هذه الجامعات من الجامعات الإسلامية، وكذلك أخـذت نظـام السـاعات المعتمـدة أو مـا يعـرف بنظـام المقـررات الـذى نبتـت فكرتـه فــى الجامعــات الإسلامية، ثم تبنتــه الجامعـات فـى أورورب‍ـا وخاصـة فـى ألمانيـا فـى القرن

الثامن عشر الميلادى، وتلتها الجامعات الأمريكية، ففى الجامعات الإسلامية كان يترك للطالب حرية إختيار المجال الذى يتخصص فيه.

ثانياً: مجال العلوم والمعارف: فنجد أن أثره واضح فى الجامعات الأوربية والأمريكية، فى شتى الجوانب والمجالات العلمية كالطب والصيدلة والكيمياء والفيزياء والرياضيات وعلم الاجتماع والجغرافيا ...الخ.

حيث صنف علماء الأندلس مصنفات قيمة فى هذه المجالات العلمية، ظلت تدرس حقباً طويلة فى هذه الجامعات.

"وقصد جامعات طليطلة وقرطبة واشبيلية عدد كبير من طلاب نصارى درسوا فيها ونهلوا من علومها حتى إذا عادوا الى بلادهم نقلوا معارف المسلمين العقلية اليها ... ويعتبر جان غوتيز اللوريني أقدم أداة انتقلت بواسطها العلوم الإسلامية إلى أوروبا شمالى جبال الألب، ذلك أن الامبراطور أوتو الكبير أرسل سفارة إلى عبد الرحمن الناصر سنة ٩٥٣م على رأسها جان غوتيز هذا، وهناك وقع تحت تأثير الحضارة الإسلامية، وقد مكث جان هذا فى الأندلس ثلاث سنوات تعلم خلالها العربية، وعندما رجع الى ألمانيا اصطحب معه حمل حصان كتبا عربية أغلبها كتب علمية"(٣٧).

من هذا الاقتباس يمكننا استنباط عدة أمور منها:

أ - أن الجامعات تركزت فى المدن الكبرى مثل طليطلة وقرطبة وأشبيلية.

ب - أن طلاب هذه الجامعات لم يكونوا مسلمين فحسب بل كان منهم نصارى أوربيين يفدون إليها من دول أوروبا للدراسة والتعليم، كما يحدث العكس فى أيامنا هذه حيث يذهب الطلاب العرب الى الجامعات الأوربية للدراسة والتعليم والبحث، وسبحان مغير الأحوال.

جـ ـ انتقلت العلوم الـى أوروبـا عن طريـق هـؤلاء الطـلاب مـن جهـة وعـن طريق السفارات من جهة أجرى.

د ـ كـان أفضـل زاد يحملـه الطـلاب وأعضـاء السـفارات عنـد عودتهـم الــى بلادهم الوربية هو "الكتب العربية" وخاصة العلمية منها.

ويتضـح مـن فحـص وتحليـل المصـادر المختلفـة أو أورورـبـا اقتبسـت طريقة البحث المنهجى عن طريق عرب الأندلس المسلمين، وذلك من خـلال مجموعة المؤلفات الأندلسية التى هدتهـا الـى معرفـة طـرق التفكير المنطقـى وأساليب البحث التجريبى، فكانت سبيلا إلى النهضة العلمية فيها.

وفى الواقع فقد كان للنشاط الكبير المتعلق بالترجمـة فـى ذلـك الوقـت، أهمية كبيرة بالنسـبة للثقافـة الأوربيـة، حيـث ترجـم الكثـير مـن كتـب العلـوم والفلسفة والطب والفلك والرياضيات من اللغة العربية إلى اللغـة اللاتينيـة ـــ لغـة البحـث فـى أوروبـا آنـذاك ـــ وكـانت طليطلـة المركـز الرئيسـى لنشــاط الترجمة ونقل العلوم ـ وخاصة الطب ـ إلى أوروبا، وبفضل هذه الترجمــات تعرفت أوروبا على الانجازات العلمية للعلماء الأندلسيين واستفادت منها فـى بناء خضارتها.

"ويعتـبر قسـطنطين اليونـانى أقـدم نـاقل للمؤلفـات العربيـة الطبيـة إلـى اللاتينية، وهو نصرانى عاش فى قرطبة بين المسلمين مـدة طويلـة ثـم رجـع الى أوروبا، فأصبح رئيسا لدير كاسينو سنة (١٠٥٦م) وقد أثرت نقوله تأثيراً عظيماً فى دراسة العلوم فى جنوبى ايطاليا"(٣٨).

ولم تقتصر مراكز الترجمة على مدينتى طليطلـــة وقرطبـة، بـل شـملت سـائر المـدن الأخـــرى فـــى الأندلـس ولاسـيما برشـلونة وليـون ومرسـية،

وازدهرت فيها الى حد كبير، كما استمرت حركة الترجمة على هذا النحو وسرت الى سائر الحواضر الأوربية فى فرنسا وايطاليا والمانيا.

ومن ثم شهدت الأندلس وما جاورها من البلدان – ابان العصور الوسطى – حركة ترجمة موارة، وازدهرت ازدهاراً لم تشهد مثله تلك البلاد من قبل، وكانت بذلك رافداً كبيراً ساهم إلى حد بعيد فى بعث النهضة العلمية فى أوروبا واغناء الحضارة الانسانية.

ولم يقتصر فضل علماء الأندلس على ما قدموه إلى أوروبا من إبداعاتهم الأدبية وانجازاتهم العلمية، بل تعدى إلى ما قدموه لها أيضا حصيلة ما كان يؤول إليهم من علوم علماء المشرق وآدابهم وسائر معارفهم.

وتأثرت أوروبا بمعطيات الأندلسيين تأثيراً كبيراً نتيجة للاحتكاك المباشر الذى حدث بينها وبين الأندلس والذى تمثل فى التفاعل العلمى والتمازج الثقافى، ومن ثم أصبح المد الحضارى متواصلاً، حتى غدت المعارف الإنسانية قسمة مشتركة بين الشعوب وإن اختلف المكان والزمان.

وجملة القول – وفى ضوء ما تقدم – أن العلوم العربية فى الأندلس وما امتازت به من تقدم وإزدهار، كانت البذرة الأولى للتطور العلمى فى دول أوروبا، والشرارة التى اتقد بها عصر النهضة الأوربية.

ومما لاشك فيه أن فضل الحضارة الأندلسية وأثرها على أوروبا سيزيد بقدر همة وجهد المؤلفين المعاصرين فى الكشف عن تراث هذا البلد التليد الذى رفع مقام الانسانية وساهم فى بناء حضارتها.

الفصل الثانى

الكتب فى الأندلس

- البواكير الأولى لحركة التأليف
- حركة انتاج الكتب
- حركة بيع وتوزيع الكتب
- بعض القضايا المرتبطة بالكتب فى الأندلس
- دراسة للاتجاهات العددية والنوعية للكتب فى الأندلس

الفصل الثانى

الكتب فى الأندلس

يتناول هذا الفصل بالدراسة والتحليل حركة انتاج الكتب فى الأندلس، ابتداء من البواكير الأولى مع بيان ارهاصاتها وطرق التأليف، يلى ذلك طريقة انتاج الكتب وتجارتها وتوزيعها مع بيان دور العاملين فى عملية الانتاج هذه: النساخ والوراقون، المراجعون، المجلدون ... الخ ثم دراسة للاتجاهات العددية والنوعية للانتاج الفكرى الأندلسى، وأخيراً يناقش المبحث قضية الضبط الببليوجرافى لهذا الانتاج.

وتجدر الاشارة إلى أن المعلومات عن عناصر هذا المبحث نادرة، وتبخل علينا المصادر سواء الأصلية أو غيرها فى امدادنا بالمعلومات والبيانات المطلوبة، فقد عجزت هذه وتلك عن تغطية واحد أو أكثر من هذه العناصر، ومع ذكل حاول الباحث ـ جهد الطاقة ـ أن يشبع هذه العناصر بالمعلومات بعد سلسلة طويلة من التحليلات والاستنتاجات الذهنية، استقاها من بين سطور النصوص المتناثرة هنا وهناك.

٢/١ البواكير الأولى لحركة التأليف

نشطت الحركة العلمية فى الأندلس فى العصر الأموى وما تلاه من العصور الإسلامية ـ وعلى الأخص فى عصر الخلافة (١٣٨-٤٢٠هـ) ـ نشاطاً لامثيل له، حتى غدت بلاد الأندلس بحق قاعدة للعلوم ومراكز للآداب، وأصبح اسم "الأندلس" يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعلم، فقد شغل 'العلم' الذى كان يعنى كل حياة الفكر ، اهتمام المسلمين فى الأندلس أكثر من اى شئ آخر، حتى أصبح العلم معلماً من معالم البلاد البارزة، كل ذلك كان نتيجة للأمن

الداخلى والاستقرار السياسى والرخاء الاقتصادى الذى عم البلاد ابان عصر الاسلام الذهبى بها.

وكان حكام البلاد مستنيرين يقدرون قيمة العلم ويعرفون قدر المشتغلين به وكانوا على حظ وافر من الثقافة والعلم ينظمون الشعر ويشتركون مع الكتاب والشعراء وعلماء اللغة فى مجالس يجرى فيها نوع من المساجلات الأدبية والمناظرات العلمية "فقد جمع الأمراء والأغنياء رجال حولهم، وأصبح شائعاً أن يعقد أحد الأمراء، مرة فى الأسبوع أو أكثر، مجلساً يجمع فيه ممثلى الحياة الفكرية، ويناقشوا بالاشتراك مع مضيفهم الأميرى تلك الموضوعات التى تهمهم"[٤٠]، بل أن أحدهم وهو الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) دق نظرة واستوسع علمه، الى حد أنه كان ملما بكثير من فروع المعرفة وعلى الأخص العلوم العقلية، بحيث استحق أن يلقب عن جدارة "الخليفة العالم"[٤١].

كانت هذه الأجواء الفكرية بمثابة الارهاصات الأولى لنشأة حركة التأليف حيث اجتذبت بلاد الأندلس فحول الشعراء، وارتادها كبار الأدباء، وغشيها أساطين العلماء، فأموها من كل أوب، وقصدوها من شرق وغرب، وتقاطروا عليها من كل حدب وصوب، وأصبحت البلاد مجالا خصبا لمساجلاتهم الأدبية ولأنشطتهم العلمية.

"وكان الحكام يبذلون من مالهم ووقتهم الشئ الكثير للعلماء والأدباء ولذلك راجت دولة العلم والأدب رواجا كثيرا وكثير التأليف والتصنيف"[٤٢].

اعتمدت حركة التأليف في الأندلس بادئ ذى بدء على مصدرين هما:

١ـ **التراث الإسلامى بالمشرق:** وذلك عن طريق استقدام العلماء المشارقة إلى الأندلس، أو ما يعرف بمصطلحات العصر الحديث بنظام "الأساتذة الزائرين"، وعن طريق رحلة الأندلسيين إلى المشرق للتزود بالعلم والمعرفة والتحصيل في مختلف العلوم والفنون، أو ما يعرف بمصطلح العصر الحديث بنظام 'الابتعاث إلى الخارج' أو 'البعثات العلمية إلى الخارج' وكان ذلك على نفقتهم الشخصية.

٢ـ **علوم الأغريق:** حيث نقل الأندلسيون إلى اللغة العربية كل ما وجدوه من تراث الأمم الغابرة، وخاصة المؤلفات اليونانية في مجالات الرياضيات والعلوم والطب والفلك والفلسفة وفروعها، حيث كانت اللغة العربية في تلك الحقبة لغة العلم والحضارة.

"ولكن ذلك لم يدم، فلم تلبث الأندلس أن استقلت فكريا، ولمعت في سمائها أسماء عريضة لعلماء فطاحل أمثال الفيلسوف الكبير ابن رشد وابن زاهر وابن طفيل الذى ترجمت كتبه إلى عدد كبير من اللغات الأوروبية وابن باجة وابن البيطار وابن فرناس وابن الخطيب والفيلسوف العالمى ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع والعالم الصوفى ابن عربى وابن سبعين وغيرهم من الأعلام" (٤٣).

وبدأت حركة التأليف الخالص تشق طريقها في مجالات المعرفة السائدة في ذلك الوقت، سواء في العلوم العقلية أو النقلية وكان "هناك طريقان رئيسان سلكتهما المؤلفات العربية وصولا من المؤلف إلى القارئ، أما الطريق **الأول:** فهو طريق التأليف، ونعنى به أن يعكف المؤلف على جمع مادة كتابة ومراجعتها وتهذيبها وتنقيحها والإضافة إليها ثم يخرجها للناس بعد

أن تستوى على صورة يرتضيها .. وأما الطريق **الثانى** فهو: الأمالى وهي ثمار مجالس الاملاء التى انتشرت في الحواضر الإسلامية خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين حتى ليخيل الى المرء أن الاملاء كان هو الطريقة الغالبة فى التأليف خلال هذين القرنين "[٤٤]

وكان من ثمار ذلك ظهور انتاج فكرى ضخم تمثل فىالمؤلفات والمصنفات على تنوع موضوعاتها وتباين أنماطها واختلاف أحجامها. ومما ساعد على الزيادة المطردة لهذا الانتاج كما نوعاً، مجموعة من العوامل، تمت الاشارة إلى بعضها سلفاً على وجه التفصيل، ولكن كانت هناك ثلاثة عوامل لها تأثيرها المباشر، أوجزها فيما يلى:

١ـ إختراع الورق وانتشاره كمادة للكتابة عليه بعد أن تراجع كل من الرق والبردى، حيث "طما بحر التأليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرق عن ذلك، فأشار الفضل بن يحيى لصناعة الكاغد، وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه وأتخذه الناس من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية"[٤٥]. وكانت شاطبة تنتج أجود أنواع الورق على مستوى الديار الإسلامية وقتئذ.

٢ـ ظهور طبقة الوراقين وخاصة فى المدن الكبرى الأندلسية، مثل: قرطبة وأشبيلية وغرناطة وغيرها، وكانت تمارس فيها مهنة الوراقة وهى — كما يعرفها ابن خلدون — "عملية الانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور المكتبية والدواوين"[٤٦].والوراقة بمفهوم العصر الحديث تعنى عملية النشر بعناصرها المختلفة من طباعة ومراجعة وتجليد وتوزيع ...الخ.

٣- الرغبة الشديدة عند الأندلسيين فى تعلم القراءة والكتابة، والتى "كانت تدفع عجلة التأليف وتمدها بأسباب القوة والانطلاق"[٤٧]، وهذا هو حال شعب الأندلس، حيث انتشر التعليم والثقافة فى كل أنحاء الأندلس حتى أصبح الناس قادرين على القراءة والكتابة.

هذه العوامل الرئيسية الثلاثة وغيرها مما يماثلها كانت وراء زيادة الانتاج الفكرى من حيث الكم وتباينه من حيث النوع، كان هذا الانتاج مرآة للثقافة والفكر والحضارة الإسلامية فى الأندلس حتى وإن ضاعت أصول معظمة بفعل العوامل المختلفة، سواء أكانت داخلية أو خارجية.

ولكن إذا كانت هذه هى بداية حركة التأليف بأرهاصاتها ومصادرها وطرقها ودوافعها المختلفة، فما هى طريقة انتاج هذه المؤلفات وكيف كانت تتم، وما هى طريقة التوزيع حتى يصل الكتاب إلى القراء.

فى الفقرات التالية عرض مبسط لهذه القضايا وما يتعلق بها:

٢/٢ حركة انتاج الكتب

خلال القرون الأربعة الأولى للهجرة حدثت تغيرات كثيرة فى الحياة الثقافية والعلمية والاقتصادية والسياسية فى أصقاع الامبراطورية إسلامية.

وفيما يتعلق بموضوعنا فقد كان من الأهمية بمكان انتقال مركز القوى السياسية والثقل العلمى من شرق الامبراطورية الاسلامية إلى غربها فى الأندلس، حيث نمت وازدهرت الحضارة الاسلامية فيها.

وكان من نتيجة مواكبة هذا الازدهار انشاء وافتتاح كثير من المدارس والمعاهد التعليمية الأخرى لنشر الدين والعلم وتوسيع رقعه الثقافة وتخريج الكوادر التى تحتاج إليها البلاد فى ذلك الوقت، الأمر الذى عمل على زيادة

عدد الطلاب والدارسين والاساتذة في مختلف التخصصات العلمية السائدة عندئذ، وهذا بدوره ساعد على زيادة عدد الذين يطلبون الكتب سواء المقررة للدراسة أو المخصصة كمراجع للاستزادة.

وتحت ضغط الحاجة بدأ النُساخ والمراجعون والمجلدون وبائعوا الكتب يعملون بجد لتلبيه هذه المتطلبات التدريسية والبحثية، ويزداد عددهم يوما بعد يوم، حتى أصبح نسخ الكتب وبيعها منسجماً ومتناغماً ومتواكباً مع هذه المتطلبات.

ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت ورش النسخ الخاصة، وعلى قدر ازدياد الطلب على الكتب في الأندلس كانت زيادة عدد ورش النسخ بها.

كان من "الطبيعي بل كان من الممكن لرجل العلم الذى تعوزه الموارد المستقلة أن يلجأ أيضاً إلى نسخ الكتب بغرض البيع حصراً، وبهذ الطريقة نشأت طبقة حرفية كاملة كان لها أهمية كبرى في نشر الكتب"[٤٨].

هذه الطبقة هي طبقة الوراقين، حيث كان يدعى الشخص الذى يحترف نسخ الكتب "الوراق" من ورق وورقة، وكان يدعى أيضاً "النساخ" كما كان يطلق عليه ـ في بعض الأحيان ـ الخطاط.

وقد عمل في هذه المهنة أناس من مختلف مراتب الثقافة والمستويات الاجتماعية، بينهم مؤلفون بارزون، وعلماء كبار، لدرجة أن ألحقت بأسمائهم وصف "الوراق".

لقد لعب الوراقون دورا لابأس به في انتاج الكتب في الآندلس، حيث كانوا ينسخون الكتب للمؤلفين، فقد كان من الشائع آنذاك أن يكون للمؤلف وراقه الخاص، كما كانوا حلقة وصل بين المؤلفين والجمهور، وكذلك نسخوا المؤلفات القيمة للأمراء والأغنياء الذين يرغبون في تأسيس مكتبات لهم[٤٩].

"ومع انتاج الورق بدأت المرحلة الذهبية للكتاب الإسلامى، فقد ازداد عدد المخطوطات كثيرا وأخذ التنافس يشمل الخلفاء والوزراء والأغنياء على اقتناء الكتب الغالية والنادرة واصبح الخطاطون موضع البحث والتقدير بينما كان الكبار منهم يغمرون بالتواصى والهدايا القيمة، وكان الكثير من الخطاطين يعملون في المكتبات حيث ينسخون هناك المؤلفات لحساب تلك المكتبات، بينما كان كبار الخطاطين يعيشون في قصور الخلفاء حيث ينسخون المؤلفات الغالية للمكتبات الخاصة، وإلى جانب هؤلاء كان هناك خطاطون يعيشون فقط من عملهم، أي يعملون حسب الطلب"(٥٠).

من عجز هذا الاقتباس يمكن استنباط بعض الأمور المتعلقة بمنتجى الكتب وهم النساخ ـ أو كما يطلق عليهم الخطاطين ـ نسجلها فيما يلى:

١ـ اهتمام أولى الأمر بالخطاطين باعتبارهم مصدر انتاج الكتب، سواء كان اهتماما أدبيا ومعنويا أو ماليا.

٢ـ يمكن تقسيم فئة الخطاطين إلى ثلاثة مستويات هى:

أ ـ فئة كبار الخطاطين: ويعمل أعضاؤها في القطاع الخاص لدى الخلفاء وعلية القوم حيث رغد العيش ودوام الاقامة واتحافهم بالهدايا بين الحين والآخر، واقتصر عملهم على نسخ المؤلفات الغالية لحساب مكتبات هؤلاء القوم.

ب ـ فئة الخطاطين العاديين: ويعمل أعضاؤها في القطاع العام لدى المكتبات الأخرى، وانصب عملهم على نسخ المؤلفات التى هى المصدر الأساسى لبناء وتنمية مقتنيات هذه المكتبات.

جـ ــ فئة الخطاطين المؤقتين: وكان يعمل أعضاؤها بصفة مؤقتة أوموسمية حسب الطلب.

٣ـ امتاز أعضاء الفئتين الأولى والثانية بتأمين مستقبلهم، لتعينهم في العمل بصفة دائمة، أما أعضاء الفئة الثالثة فلم يكونوا معينين، بل يعملون بصفة غير دائمة.

٤ـ كانت هذه الفئات الثلاث تتقاضى أجرا متفاوتاً ــ كل حسب مستواه ــ نتيجة عملهم. وأغلب الظن أنه كان هناك بعض النساخ يمارسون هذا العمل بدون مقابل للتقرب إلى الله ولنيل الأجر والثواب في الدنيا والآخرة.

ويرتبط بقضية النسخ هنا، التعرف على انتاجية الناسخ الفرد، بمعنى كم كان ينسخ كل واحد من هؤلاء النساخ من الصفحات في اليوم والليلة، لا مصادر تتيح لنا الأمل في الكشف عن حجم هذه الانتاجية على وجه اليقين، غير اشارة واحدة عثر عليها الباحث في كتاب أستاذنا الدكتور 'محمود الشنيطي" رحمه الله الموسوم بـ "الكتاب العربي بين الماضي والحاضر" وهى "أن الناسخ كان ينسخ في يومه وليله مائة صفحة"(٥١).

وهناك إشارة أخرى، ولكنها خاصة بالناسخات من النسوة حيث كان بعضهن " ينسخن القرآن فى أسبوعين" (٥٢)، وإذا افترضنا أن عدد صفحات القرآن حوالى (٦٠٠) صفحة، فبعملية حسابية نجد أن انتاجية الناسخة يصل إلى حوالى (٤٣) صفحة فى اليوم والليلة، أى نصف انتاجية الناسخ تقريباً وهى نسبة مقبولة حيث لدى النساء ـ عادة ـ أشغالهن الأخرى.

ويربط بهذا العنصرالتعرف على الحد الأقصى لعدد النسخ، ومن الصعب علينا أن نكّون صورة واضحة ـ بالاستناد إلى المعلومات المتفرقة

وغيـر المترابطـة التى نجدهـا فى المصادر المختلفة ـ عن الحد الأقصـى أو الأعلى لعدد النسخ لكتاب ما أو التعرف على عدد النسخ التى صدرت مـن كتاب ما، خلال فترة زمنية محددة. ومع ذلك يمكن أن نستنتج أن تعدد النسـخ لكتاب ما أو تعدد طبعاته، إما ناجم عن قيام المؤلف نفسه باملاء الكتاب عـدة مرات، فيكون له بذلـك عـدة صيغ (طبعـات) منشـورة، وإمـا نـاتج عـن نقل (نسخ) بعض الكتب ذات الاستعمال الواسع من قبل نساخ كثيرين، وهذه وتلك ساعدتا على ظهور صيغ أو (طبعات) عدة للكتاب الواحد.

وأخيراً يرتبط بعملية التسخ ـ التـى تعتبر الخطـوة الأولـى فـى انتـاج الكتاب ـ الحجم المعيارى، بمعنى عـدد أوراق الكتـاب (بيـان التوريـق) وفـى الواقع لا يوجد حجـم معيـارى لعـدد صفحـات الكتـاب، فبينمـا نجـد بعضهـا " مباحث صغيرة لايتجاوز الواحد منها بضع أوراق"[٥٣]، نجـد أن كثـيرا منهـا يقع فى مجلدات ضخمـة، ومـن الشـواهد علـى ذلـك مـا يذكـره المقرى فـى (نفح الطيب) أن كتاب "السماء والعالم الذى ألفه أحمد بـن إبـان (ت ٣٨٢هـ) صاحب شرطة قرطبة يقع فـى مائـة مجلـد رأيـت بعضـه بفـاس" كذلـك ألـف المظفر بن الأفطس ـ أحد ملوك الطوائف فى الأندلس ـ الكتاب المظفرى فى خمسين مجلداً، يشتمل على كل ما يختص به علم الأدب [٥٤].

ـ ولعل الخطوة التالية فى عملية انتاج الكتـب كـانت مراجعـة مـا ينسـخه النُساخ، للاطمئنان على دقة النسـخ، حتـى يصـل إلـى القـارئ بـأقل قـدر مـن الأخطاء أو بدونها تماماً علـى أفضـل وجـه، وهنـا ظهـرت فئـة "المراجعيـن" الذين كانوا من كبار العلماء والأدباء ويتمتعون بشـهرة كبـيرة وخـبرة طويلـة فى المجال. وفى بعض الأحيان كان المؤلف نفسه يقـوم بمراجعـة كتبـه التـى أملاها للتحقق من صحة النص المكتوب.

وتعتبر هذه الخطوة مرحلة ضرورية من مراحل انتاج الكتاب، فقبل الاذن بنشر الكتاب، كانت تتم مجموعة من الاجراءات الصارمة من قبل المؤلف، أشد حزماً وأكثر انضباطاً مما هو معمول به الآن، حيث كان أسلوب نسخ الكتب يتم بتلاوتها وكتابتها بطريقة الإملاء ـ فى أغلب الأحيان ـ فيما يسمى "مجالس الاملاء" وكان الاملاء يجرى غالباً من الذاكرة، ويقوم به نفر من تلاميذ المؤلف، أو أوثق التلاميذ صلة به والمتمتع بصفة الأمانة، ويقال أن ابن قتيبة الأندلسى قد أملى تاريخ اسبانيا عن ظهر قلب[٥٥].

ومن ثم كان لابد من المراجعة "ولم يكن بوسع المؤلف طبعاً أن يمنح وقتاً غير محدد لسماع قراءة المراجعة من أجل الترخيص (بنقل ونشر الكتاب) لذلك فقد كان أحياناً يجمع مستمعيه لقراءة المراجعة بنفس أسلوب جمعهم من أجل املاء الكتاب"[٥٦].

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل كان الكتاب ـ قبل التصريح بنشره ـ يقرأ أولاً للجمهور من قبل المؤلف نفسه، ثم يقرأ علنا ثلاث مرات أخرى بصيغ مختلفة من قبل نساخ بحضور المؤلف، وفى هذه الأثناء تجرى التعديلات والإضافات اللازمة باملائها على المستملى الذى يعيد قراءة الصيغة الجديدة على المؤلف، وأخيراً يبلغ الكتاب أجله وصيغته النهائية بقراءته عالياً على المؤلف بحضور الناس، ثم يعطى المؤلف ترخيص اجازته لهذه الصيغة للنشر.

"ويسمى ترخيص الكتاب "اجازة" وتعنى جعله شرعياً، وكان المؤلف يضع اجازته على النسخ التى صادق عليها، وهى ترمز إلى أنه سمح بنقل الأثر (الأدبى والعلمى) منه بالشكل المصادق عليه، وهو تعبير يتكرر وكان

من المهم الحصول على الاجازة من المؤلف مباشرة مع عبارة "سماعا عنه" أى بعد أن سمع المؤلف قراءتها"[٥٧].

نستنتج من هذا الاقتباس أن الناشر (الناسخ) لا يستطيع أن يتجاوز حدوده فى نشر أى كتاب دون موافقة كتابية صريحة من المؤلف، أى اعطاء الناشر "أمر نسخ" أو "أمر طبع" أو حق النشر بمصطلحات العصر الحديث أو حق الطبع كما يسمى فى عصرنا الحاضر COPYRIGHT ، وهذا وذاك لا يتحققا إلا بعد مراجعة النص المعد للنسخ (النشر) مراجعة دقيقة مع الأصل الذى هو فى فكر المؤلف كما أملاه للتحقيق من صحته.

ومن الطريف حقاً أنه كان يوجد فى الزمن البعيد ما يمكن أن نطلق عليه تجاوزاً "النشر التعاونى" COOPERATIVE PUBLISHING بمصطلحات هذا العصر، ذلك أن المؤلف عندما كان يعطى ترخيصاً لنشر كتابه لناسخ ما، فإن هذا معناه أن الناسخ أصبح مخولاً بنقل الكتاب بنفس الأسلوب الذى ارتضاه المؤلف، ومن ثم يمكنه أن يفوض آخرين كذلك، بشرط أن يتأكد بنفسه بأن نسخهم تتفق مع نسخته أى نسخة الناشر المفوض بنشر الكتاب.

وثمة ظاهرة أخرى تتعلق بعملية المراجعة، ألا وهى إعادة قراءة أوائل المطبوعات (النسخ) على معلم مشهور، وذلك بغرض طبع نسخ أخرى منها، وعندما يضع المراجع علامة الموافقة عليها بعد قرائتها، فإن هذا يمنح النسخة الجديدة المنقولة من النسخة القديمة قوة المرجع أو السند وقد تحدث القوم "عن محمد بن مسعود الأندلسى (ت ١١٤٩م) بانه كان الرجل الذى كان الناس يرتحلون إليه ليقرأوا عليه كتاب سيبويه"[٥٨].

وتأتى المرحلة الأخيرة فى إنتاج الكتاب وهى التجليد، وقد برع القوم فيه، ونال تجليد الكتب عناية خاصة عند أهل الأندلس "وكانت غرناطة

بالأندلس أكثر المدن براعة واتقانا في صناعة الجلود عامة وتجليد الكتب تجليداً نفيساً على وجه الخصوص"(٥٩).

وكان النساخ حين ينتهون من عملهم سواء النسخ أو المراجعة "يسلمون المخطوطة إلى المعلمين الذين كانوا يكتبون بالحبر الأحمر الحروف الأولى أو تزيين المخطوطات بالرسوم والخطوط وزخرفة جوانبها"(٦٠) وفي نهاية الأمر يأتي دور المجلدين لتجليد الكتاب.

والتجليد أشمل من التغليف "فالتغليف هو وضع غلاف لكتاب سواء استعمل الجلد في الغلاف أو لم يستعمل، أما التجليد فهو تغليف الكتب بالجلد، ولكن المسلمين دأبوا على أن يستعملوا كلمة "مجلد" لترادف كلمة BINDER بالانجليزية"(٦١).

من هذا الاقتباس يمكن أن نستخلص أمرين هما:

أ - أن صناعة التغليف كانت جزءاً من فن التجليد.

ب - أن المسلمين في عصورهم الأولى لم يعرفوا في تغليف الكتب إلا الجلد.

ويرتبط بموضوع التجليد جزئية أخرى هي "التذهيب" أي استخدام الذهب أو ماء الذهب بعد معالجته بمواد أخرى في زخرفة وتذهيب الكتب، واهتم المسلمون ـ سواء في الأندلس أو في أصقاع الإمبراطورية الإسلامية الأخرى ـ اهتماماً فائقاً بتزين كتبهم وتحليتها بالذهب والفضة والأحجار الكريمة، وكان نصيب المصاحف الشريفة في ذلك نصيباً موفوراً، حيث احتلت زخرفة القرآن الكريم بشكل خاص مكانة فريدة لدى المزوقين والمذهبين، وهذا ما نجده في تذهيب وزخرفة الصفحتين الأوليتين والأخيرتين من المصحف، حيث أصبحت هذه الصفحات لوحات فنية رائعة تتوافر فيها جميع العناصر الجمالية المتوافرة في أرقى الأعمال الفنية، كما

استخدم التذهيب والزخرفة أيضاً فى الفواصل بين السور وفى الفواصل بين الآيات[٦٢].

٣/٢ حركة بيع وتوزيع الكتب

لم يكن الوراقون نساخين فحسب، بل بائعى كتب أيضاً، فكان لكل وراق حانوت أو دكان، يجرى فيه عملية نسخ الكتب وبيعها، وازدهرت تجارة الكتب فى الأندلس وبقية بلاد العالم الإسلامى ازدهاراً واسعاً، وأصبحت مهنة الوراقة عملاً تجارياً مربحاً، واشتغل بها علماء وأدباء اجلاء، وأصبح الوراق مديراً لهذا العمل، ينتج الكتب اما بناء على الطلب من ذوى الحاجة اليها، وإما بهدف بيعها فى السوق المفتوح.

ومن ثم كان الوراق يقتنى الكتب بالشراء، أى يحصل على حق نسخها (نشرها) من مؤلفيها، ثم يقوم هو ـ فيما بعد ـ بنشرها وتوزيعها على نطاق واسع عندما تسنح الفرصة لذلك، أى يزداد عليها الطلب ويحتاج اليها سوق النشر. وكان الوراق يقوم بمهمة يتشاطرها فى الوقت الحاضر كل من الطبّاع وبائع الكتب، وأصبح حانوت (دكان) الوراق مؤسسة للطباعة والنشر والتوزيع كما نقول فى أيامنا هذه.

وكان العاملون فى مهنة الوراقة ـ كبقية الحرف ـ منضمين فى نقابة لهم يرأسها شيخ له مركزه الاجتماعى ونشاطه المشهود فى المهنة، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه "اتحاد الناشرين" بمصطلحات هذا العصر ان جاز لنا التعبير، كما كانت لهم اماكن ثابتة، تعرف بشارع الوراقين فى كل من قرطبة واشبيلية والمدن الكبرى فى الأندلس.

وكان يجرى بيع الكتب بالمزاد العلنى أو النداء، أو على حد تعبير ياقوت الحموى "ان الكتب كان ينادى عليها بالمزاوده"[٦٣]، حيث كان يجلس

الناس فى حلقة ويعلن عن الكتاب بالنداء، فيتزايد عليه الناس واحد بعد الآخر، وكان هناك دلالون للكتب، لهم خبرتهم فى مجال الكتب وحسن عرضها والاعلان عنها وبيان مميزاتها وخصائصها، مما يساعد على اقبال الجمهور عليها بالشراء.

ويشير البعض[٦٤] إلى أن حلقات بيع الكتب ـ وهى شبيهة بما نقيمه من معارض الكتب فى أيامنا هذه ــ لم تقتصر على حركة البيع وعقد الصفقات التجارية، بل كانت "مسرحاً للثقافة والحوار العلمى، عندما أمها المثقفون والأدباء، واتخذوها مكاناً لاجتماعاتهم وأبحاثهم". وهذا ما نجده فى معارض الكتب الحالية، حيث يصاحبها عادة قيام حلقات دراسية وندوات علمية ومناقشات ثقافية وأمسيات شعرية.

وكان لمهنة الوراقة أثر عقلى ملحوظ ونشاط فكرى كبير "كثيراً ما تعدى الوراقين إلى أسرهم، ومن أمثلة ذلك زينب وحميدة ابنتا زيد الوراق الذى كان يعيش فى وادى الحجى بالقرب من غرناطة، فقد برعتا فى الأدب والعلوم وكانتا ـ على قدم المساواة مع أساتذة العصر " [٦٥].

وهكذا أصبحت الوراقة صنواً للثقافة والعلم، كما أصبح الوراق شخصية هامة فى عالم الكتب، فكل ما يتعلق بها كان بيده، فهو الذى يعقد العقود مع المؤلفين المشهورين لنشر كتبهم، حيث كان يتمتع بحس أدبى وتجارى ويعرف احتياجات السوق وآلياته، ويستشعر عن بعد أكثر المؤلفات رواجاً وأكثر المؤلفين شهرة بين الناس، ثم يتولى عملية النسخ وكل ما يتعلق بها ويحدد السعر ويقوم بالبيع والتوزيع.

وكانت حركة "بيع الكتب تجرى كما يجرى تصريف أى تجارة: يتساوم الشارى والبائع على المادة موضوع العقد، كما هو الحال الآن، ففى

عصر كان ينتج كل كتاب لوحده، لم تكن الأسعار المحدودة معروفة، ولا تزال المماحكة على السعر فى الواقع شائعة فى الشرق"(٦٦).

وهذا يقودنا إلى التساؤل عن أسعار الكتب فى الأندلس، هل كانت مناسبة أم عالية الثمن؟ تضن علينا المصادر بالمعلومات للاجابة على هذا التساؤل وما يتعلق به، ومع ذلك نسوق جملة من الاقتباسات فيما بعد، لعلها تفيد بعض الشئ فى التعرف على أسعار الكتب آنذاك بعد تحليلها واستنباط ما قد يعن عنها فى هذه الناحية.

بادئ ذى بدء يجب التنوية بأن أسعار الكتب ترتفع صعوداً وتنخفض هبوطاً، باختلاف الزمان والمكان وحركة السوق، حيث كان لها أوقات أو مواسم رواج، كما أنها كانت تخضع لقانون العرض والطلب شأنها فى ذلك شأن أية سلعة أخرى، كما أنها كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحركة العلمية والأدبية والثقافية السائدة فى البلاد، فإذا ازدهرت هذه الحركة ووجدت من يشجعها من أولى الأمر، ازدهرت بالتالى تجارة الكتب وراج سوقها وارتفع ثمنها، والعكس صحيح.

وثمة مجموعة من العوامل التى تحكمت فى أسعار الكتب نوجزها فى النقاط التالية:(٦٧).

١ ـ جودة خط الكتاب وشهرة الخطاط، فالمخطوط المكتوب بخط جيد ثمنه أعلى من المخطوط المكتوب بخط عادى أو ردئ، كما أن شهرة الخطاط لها كبير الأثر فى ارتفاع قيمة المخطوط وثمنه.

٢ ـ نسبة المخطوط إلى شخص عظيم كخليفة أو أمير أو حاكم أو وزير وهذا ما يسمى بكتب العظماء، ومن الطبيعى تزاداد قيمة مثل هذا الكتب.

٣ ـ شهرة مؤلف الكتاب، فالكتاب الذى يؤلفه مؤلف مشهور أغلى ثمناً من الكتاب الذى يؤلفه مؤلف مغمور.

ويجب أن نضيف هنا أنه قد يجتمع عاملان أو أكثر فى كتاب من الكتب فيرتفع ثمنه.

وبعد بيان هذه المؤثرات المتعلقة بأثمان الكتب، فاننا نسجل بعض النصوص المتعلقة بأثمان الكتب فى الأندلس وغيرها فى أصقاع الامبراطورية الإسلامية فى ذلك الوقت:

* نما إلى علم الحكم الثانى الذى تولى حكم الأندلس فى الفترة ما بين (٣٥٠-٣٦٦هـ) أن أبا الفرج الأصفهانى الأديب المشهور، يؤلف كتاباً لم يسبق إليه، هو كتاب "الأغانى"، فأرسل إليه بألف دينار من الذهب العين، فبعث إليه بنسخة من قبل أن يخرجه فى العراق، وكذلك فعل (الحكم الثانى) مع القاضى أبى بكر الأبهرى المالكى فى شرحه لمختصر ابن عبد الحكم [٨٦].

* وكانت أسعار الكتب السائدة فى ذلك العهد سواء فى الأندلس أو فى غيره من البلاد الإسلامية، متفاوتة فمثلاً كان ثمن كتاب تاريخ الطبرى مائة دينارا، و ٦٠ دينارا لجمهرة بن دريد[٦٩].

* وقد كانت الكتب التى ينسخها الخطاطون المعروفون والتى يكتبها المؤلفون أنفسهم غالية جداً، ولم يكن فى استطاعة أحد أن يقتنيها سوى الأغنياء، وعلى سبيل المثال يكفى أن نذكر أن ثمن كتاب المؤرخ الطبرى (٨٣٩-٩٢٣م) كان يصل إلى مئة دينار، وكان هذا بالنسبة لذلك الوقت ثمناً مرتفعاً إذ أن الكتاب المتوسط كان يباع بدينار أو دينارين[٧٠].

* يذكر ابن النديم أن أبا بكر بن دريد قال: وقع بالبصرة كتاب العين سنة ثمان وأربعين ومئتين، قدم به وراق من خراسان وكان في ثمانية وأربعين جزءاً فباعه بخمسين ديناراً[٧١].

* ويذكر ياقوت الحموى أثناء حديثه عن مكتبات مرو، أنه (أى ياقوت) لم يكن يفارق منزله مائتا مجلد أو أكثر... قيمتها مائتى دينار[٧٢].

* وقد بلغ ثمن ديوان الشاعر عطاء بن يعقوب بن ناكل بمصر مائتى دينار[٧٣].

من استقراء هذه النصوص وغيرها مما يماثلها، يمكننا استنتاج ما يلى:

١ ـ أن الكتب كانت تباع وتشترى فى حواضر البلاد الإسلامية سواء فى الأندلس أو بغداد أو مصر، بأسعار متفاوتة.

٢ ـ أن تفاوت هذه الأسعار ارتبط أساساً بـ:

أ ـ سرعة الحصول على الكتب.

ب ـ قيمة وشهرة مؤلفيها.

جـ ـ قيمة الكتب ذاتها.

د ـ عدد أجزائها.

٣ ـ ان أمهات الكتب والتى تعتبر مصدراً أساسياً فى الموضوع وتصدر فى أجزاء كانت غالية الثمن جداً قياساً إلى مستوى أسعار ذلك العصر.

٤ ـ أن متوسط السعر السائد للكتاب العادى كان يتراوح ما بين دينار ودينارين، وهذه أسعار معقولة ومناسبة فى ذلك الزمن البعيد، وتكفى لأن يتعيش منها الناشرون أصحاب دور النشر والتوزيع برغد العيش.

ومن الطريف ـ فى ذلك الوقت ـ أنه كانت توجد نسبة خصم على هذه الكتب وخاصة فى الحلقات التى تعقد لبيع الكتب (معارض الكتب) من أجل التشجيع على رواج الكتاب من جهة، وعلى نشر العلم والثقافة من جهة أخرى، إذ كان الوراقون ـ أثناء اقامة مثل هذه الحلقات ـ "يقومون بنسخ الكتب الهامة ويعرضونها للراغبين فيها ويتقاضون على ذلك أجراً متواضعاً متوسطه دينار عن كل كتاب"(٧٤).

٤/٢ بعض القضايا المرتبطة بالكتب فى الأندلس.

ثمة مجموعة من القضايا والأمور المرتبطة بالكتب فى الأندلس، تحدد معالمها وتشير إلى ملامحها، ونسجل هنا شيئاً من قضاياها بصورة مختصرة ومبسطة على النحو التالى:

١/٤/٢ افتتاحية الكتب وخواتيمها:

كانت الكتب فى الحضارة الإسلامية ـ سواء فى الأندلس أو فى غيره من البلاد تبدأ ـ عادة ـ بعبارة "بسم الله الرحمن الرحيم" باعتبار أن أى عمل لايبدأ بالبسملة سيفشل حتما، وفى ذلك قال الرسول (ﷺ) ما معناه "كل عمل لايبدأ ببسم الله فهو أبتر" أى مقطوع وغير مكتمل، يلى ذلك عبارات الحمد لة والصلعمة، وهذه العبارات يبدع فيها المؤلف مستخدماً حصيلته اللغوية وقدراته الابداعية، وكان الأسلوب المسجوع هو السائد فى مثل هذه الافتتاحيات، ويتسم الانتقال إلى موضوع الكتاب بعبارة قديمة تعود إلى ما قبل الإسلام وهى "أما بعد" وقد قيل أن أول من استخدمها قس بن ساعده الأيادى وهو من أبرز خطباء الجاهلية، ثم ذكر مجموعة من الملاحظات مدعمة بالاستشهادات بآيات مختارة من القرآن الكريم، تساعد على الاقتراب من موضوع الكتاب بطريقة غير مباشرة، ثم يبين المؤلف بعد ذلك أسباب

تأليفه كتابه، ثم يذكر عنوان كتابه بألفاظ فخمة ضخمة مسجوعة، يلى ذلك سلسلة من الاسنادات التى اعتمد عليها المؤلف فى جمع مادة كتابه، وتتألف هذه السلسلة من حلقات الباحثين، الذى ينقل الواحد منهم للآخر المادة المعينة من المعرفة، فكل مؤلف دور الناقل أو الراوى للذى يليه، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه بمصطلحات العصر "المصادر والدراسات السابقة" وهى تفيد فى تبيان مكانة موضوع الكتاب بين الموضوعات السابقة من ناحية، كما تفيد فى توثيق المادة العلمية التى اعتمد عليها المؤلف فى تأليف كتابه من ناحية أخرى.

ولنقرأ مثلاً افتتاحية ابن بسام لكتابه "الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة"[٧٥].أما بعد حمد الله ولى الحمد وأهله والصلاة على سيدنا محمد خاتم رسله، فان ثمرة هذا الأدب العالمى الرتب، رسالة تنثر وترسل، وآيات تنظم وتفضل، تنثال تلك انثيال القطار على صفحات الأزهار، وتتصل هذه اتصال القلائد على نحور الخرائد.......الخ.

أما بالنسبة لخواتيم الكتب، فكانت تسجل فى نهاية الكتاب، وتتضمن بعض البيانات مثل اسم الناشر (الناسخ)، تاتريخ إكمال نسخ الكتاب، مصحوبة بعبارات تدل على الراحة من انتهاء نسخ الكتاب وبتنهدات الفرج بأنه وصل إلى ختامه، وعادة تكون هذه العبارات متبوعة بالصلوات ومنح البركات. وكانت بيانات هذه الخاتمة توضع فى شكل منمق على هيئة مثلث قاعدته إلى أعلى ورأسه إلى أسفل، وهذا ما نطلق عليه فى أيامنا هذه "حرد المتن COLOPHON" ولنقرأ مثلاً خاتمة ابن بسام لكتابه" ولنقرأ مثلا خاتمة ابن بسام لكتابه المذكور آنفاً[٧٦].

انتهــى القســم الرابــع من كتاب الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة

وبكماله كمل جميع الديوان، والحمد لله على ذلك كثيراً وصلى

الله علــى سيدنا محمد خاتم النبيين وامام المرسلين وسلم

تسليمــاً، وذلك ضحــوة يوم الأحد السابع من شهر

ربيــع الثانـــى سنة ستة وعشرين ومائة وألف

عرفنا الله خيرها ووقانا بمنه سوء كل ضير

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد

وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

والحمد لله رب العالمين

٢/٤/٢ تأليف الكتب باسم أحد الحكام واهداؤها له.

درج القوم – فى كثير من الأحيان – على تأليف الكتب القيمة باسم أحد الحكـام أو الخلفـاء أو الـوزراء أو نحــو ذلــك، وخاصــة إذا اتصفـوا بـالعلم والعدالـة، وكـان هدف المؤلفيـن مـن وراء ذلـك رغبتهم فـى رواج أعمـالهم وحماية لأنفسهم، وظهور أسمائهم وتسليط الأضواء عليهـم، والتماسا لعطـف الحكـام، عـلاوة علـى تـأمين معيشـتهم بصـــورة أفضـل وتحسـين مسـتواهم الاقتصادى.

والأمثلة على ذلك كثيرة وخاصة فى الأندلس، فقد ألف الحصرى الشاعر للمعتمد بن عياد كتاب: المستحسن من الأشعار، فأعطاه جملة مال على تأليف هذا الكتاب(٧٧).

كما ألف صاعد بن الحسن بن عيسى المعروف بأبى العلاء، للمنصور بن أبى عامر ـ عندما صارت أمور الأندلس بيده ـ ألف له كتابين الأول بعنوان: الفصوص فى الآداب والأشعار والأخبار سنة (٣٨٥هـ) نحا فيه منحى القالى فى أماليه، فأثابه المنصور عليه بخمسة آلاف دينار فى دفعة، والثانى بعنوان: الحواس بن قعطل المذججى مع ابنة عمه غفراء، وكان المنصور كثير الشغف بهذا الكتاب حتى أنه رتب له من يقرؤه بحضرته كل ليلة(٧٨).

كذلك ألف ابن سيّده (ت٤٥٨هـ) كتاب (المحكم) فى الأندلس وأهداه إلى الحبيش مجاهد بن عبد الله العامرى حاكم ولاية دانية عامى (٤٠٨-٤٣٢هـ)(٧٩).

وفى مقابل هذه الصورة، نجد صورة أخرى لعلماء أفذاذ رفضوا أن يكون عملهم إلا لوجه الله تعالى ، وأبوا أن يتصلوا بذوى السلطان وبأصحاب السلطة، بالرغم من الاغراءات المادية والمعنوية الكثيرة لهم، وفى ذلك يذكر ابن بشكوال أن ابن القيانى تمام بن غالب بن عمر اللغوى ألف كتابا فى اللغة لم يصنف مثله إختصارا أو إكثاراً، فلما وصل خبر ذلك

إلى الأمير أبى الحبيش مجاهد بن عبد الله العامرى، أرسل إلى غالب ألف دينار أندلسية على أن يزيد فى ترجمته (أى ترجمة أبى الحبيش)، فرد أبو غالب الدنانير وأبى ذلك وقال: والله لو بذلت لى الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزت الكذب، فإنى لم أجمعه له خاصة ولكن لكل طالب عامة(٨٠). وهكذا تكون نزاهة العلماء وهمة الكُتاب وعزة نفس المؤلفين.

وكانت الكتب ـ وخاصة القيمة منها والنادرة فى مجالها ـ تعتبر من أنفس الهدايا وأجملها وقعا فى النفس، لذا اتخذها كثير من المؤلفين كهدايا لتبادلها من أجل الحب والمودة لا من أجل جر المنافع أو التزلف لذوى السلطان والجاه.

٢/٤/٣ حفظ الكتب:

ويقصد بالحفظ هنا عملية الاستظهار من قبل بعض الناس فى الأندلس، لا عملية الحفظ والتخزين وما يتعلق بهما فى المكتبات.

وكانت القابلية والقدرة على الحفظ لدى أهل الأندلس موجودة بكثرة، وتشير النصوص المتوفرة إلى ثلة من كبار الحُفّاظ فى الأندلس، منهم أبو عمر بن عات، فكان ان حضر فى جماعة من طلبة العلم لسماع السّير على بعض شيوخهم، فغاب الكتاب أو القارئ بكتابه، فقال أبو عمر: أنا أقرأ لكم، فقرأ لهم من حفظه، وقال أحدهم أنه لازمه ستة أشهر، فلم ير أحفظ منه، وحضر لسماع الموطأ وصحيح البخارى منه فكان يقرأ من كل واحد من

الكتابين نحو عشر أوراق عرضا بلفظه كل يوم عقب صلاة الصبح ولا يتوقف فى شيئ من ذلك[٨١].

كذلك يروى المراكشى أن من كبار الحفاظ أديب الأندلس وامامها وسيدها فى علم الآداب "أبو محمد عبد المجيد بن عبدون" وكان أيسر محفوظاته كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى الذى يقع فى عدة مجلدات[٨٢].

ولم يقتصر حفظ الكتب على الأدباء الأصحاء، بل تعدى إلى المعاقين، فكان ابن سيّدة أعمى ابن أعمى وله كتاب المحكم، لكنه كان يحفظ كتباً كاملة فيعجب الناس حفظه.

وكان هذا الحفظ أحد ثمرات عناية الأندلسيين بالكتب وشغفهم بها وحبهم للعلم والأدب.

٢/٤/٤ الكتب وآفاق الاتصال العلمى:

ليس الكتاب الأنيس فى الوحدة والصاحب فى السفر فحسب، انما هو الوعاء الحقيقى للنشاط الفكرى والحضارى للبشرية، وهو الوسيلة المثلى لنقل المعارف بين الأجيال والأمم لتكوين ما يمكن أن نسميه الحضارة العالمية، وهو فوق ذلك وسيلة اتصال علمى بين البشر، ولا نعدو الحقيقة إذا اعتبرنا أن أول الاختراعات تتويجا للانسانية وتحقيقاً لذاتيتها هواختراع الكتابة والكتب، فتاريخ البشرية لم يبدأ إلا حين ظهرت الكتابة والقراءة، فلا معرفة دون كتاب ولا تاريخ دون كتابة، لأن ما يسمى بذاكرة الأمم إنما هو قوة واهية إن لم تدونها الدواوين التى هى ذاكرة الأمم الخارجية والتى تبقى ما دامت الحياة.

وعكست الكتب فى الأندلس الطبيعة الشفهية للاتصال بين المثقفين والعلماء، وهذا ما نجده فى عبارات مثل "سمع المؤلف من" أو "أخذ عن" أو "روى عنه" وهى عبارات تعنى أن الكتاب أداة لتوسيع نطاق الاتصال، وأنه يخاطب حلقة من السامعين، ومن ثم يمكن القول أن الرواية كانت من أول وسائل الاتصال العلمى.

علاوة على ذلك فالكتب فى الأندلس تعطينا صورة صادقة لما كانت عليه الحركة العلمية والحياة الثقافية فى العصر الذى دونت فيه، ولم يقف الاتصال العلمى عن طريق الكتب بين الآساتذة والطلاب، بل تعدى ذلك إلى اتصال علمى بين علماء الشعوب كما حدث بين علماء المشرق وعلماء الأندلس من ناحية وبين علماء أوروبا وعلماء الأندلس من ناحية أخرى.

ولعل فهارس وبرامج الشيوخ التى برع الأندلسيون فى تصنيفها لأساتذتهم أو لِمن قابلوهم وأخذوا عنهم العلم، لهى دليل صدق على ما نذهب إليه.

ومجمل القول أن الكتب فى الأندلس لعبت دورا جد خطير، فى عملية الاتصال العلمى عند العلماء الأندلسيين وأقرانهم وساعدت على نشأة ما يمكن أن نطلق عليه المذاهب والمدارس الفكرية التى كانت تجمع ثلة من العلماء يربطهم مجال علمى أو تخصص علمى واحد، والأمثلة على ذلك كثيرة نكتفى بالاشارة إلى مدرسة ابن مسره[٨٣]. ومذهبه الذى نشره بين أتباعه ومريديه عن طريق كتبه.

٢/٤/٥ وقف الكتب

كان من عادة الحكام والخلفاء والوزراء والعلماء والأدباء وعلية القوم فى الأندلس حب العلم والعمل على نشره، وترغيب الطلاب فيه، وخاصة

طلاب المدارس، وقد أدركوا أن الكتاب وسيلة ضرورية فى العملية التعليمية لاغنى عنها للمعلم والمتعلم، لذا اهتموا بانشاء مكتبة فى كل مدرسة ليستفيد من مقتنياتها طلاب العلم.

"ومن هنا وجدنا كل من يوقف مدرسة يجعل لها خزانة كتب وقفية، لها نصيب من الموارد المالية المخصصة لتسيير عجلة الوقف بشكل عام، ثم كان أخيار فضلاء من الناس علماء وأثرياء وطلاب علم يضيفون إلى خزانةالكتب من طريق شراء كتب يوقفونها، أو تضمين وصاياهم ما يشير إلى وقف ما يخصهم من كتب على مدرسة محددة، ويمكن للمرء أن يجزم أن مدرسة واحدة فى بقاع العالم الإسلامى القديم ما كانت تخلو من مكتبة تابعة لها بغض النظر عن حجمها وموقعها"(٨٤).

وبالرغم من أن العلم ليس فيه جزم كما يشير الاقتباس، إلا أننا سنعتبر هذا نوعاً من الحماس من لدن المؤلف. ومن هذا الاقتباس نستنتج أن الوقف قد عم كل بلاد العالم الإسلامى فى أزهى عصور الدولة الإسلامية، سواء فى الأندلس أو غيره من البلاد الإسلامية الأخرى، كما نستنتج أيضاً أن الوقف نشأ مع نشأة المدارس، حيث أوقف قسم كبير من الأوقاف على التعليم والتدريس، فكان الحكام ومن فى حكمهم من أولى الأمر وعليه القوم والوجهاء من الناس يرسلون نسخاً من الكتب المهمة إلى عدة مدارس لتكون وفقا عليها، وعادة يكتب الحجة الوقفية أحد الأدباء المعروفين ببلاغة قلمة، من ذلك ما أشار إليه "المقرى" فى "نفحه" بشأن وقف كتاب "الاحاطة بتاريخ غرناطة" لابن الخطيب على المدرسة اليوسفية(٨٥).

٢/٤/٦ حركة انتقال الكتب

كانت بلاد الامبراطورية الإسلامية ــ فى أزهى عصورها ــ وحدة ثقافية واحدة، بالرغم من التجزئة السياسية التى أصابتها وجعلت منها عدداً كبيراً من الدويلات المنقسمة.

ومهما يكن من أمر فقد كانت سوق الوراقة فى هذه البلاد سوقاً مفتوحة يستطيع المؤلف أن ينتقل من بلد إلى آخر دون حواجز طبيعية أو حدود سياسية مصطنعة، كما كانت الكتب وما تحتويه من مضامين فكرية تنتقل هى الأخرى بحرية تامة.

واتخذت الكتب فى حركتها عدة اتجاهات، من الأندلس إلى المشرق وبالعكس، ومن الأندلس إلى الدول الغربية وبالعكس، والأمثلة على ذلك كثيرة.

كان الحكم الثانى (٣٥٠-٣٦٦هـ) يرسل الوكلاء والموردين إلى جميع البلاد الإسلامية لشراء الكتب واستجلابها إلى الأندلس حتى اجتمع عنده منها ما لم يجتمع لغيره قط، ويرسل إليهم الأموال لشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه[٨٦].

كذلك ذهب "سلمة بن سعيد الأندلسى" إلى المشرق واستقر فى مصر وجمع الكثير من الكتب، ورجع بها إلى الأندلس، وكان ذلك فى أواخر القرن الرابع الهجرى، كذلك ذهب الكرمانى أحد رجالات الأندلس إلى المشرق، وعند عودته إليها جلب معه الكثير من الكتب من بينها "رسائل اخوان الصفا"[٨٧].

كذلك فقد وصل عدد كبير لا يحصى من العلماء الأندلسيين إلى المشرق اضطرتهم إلى ذلك حركة الاسترداد المسيحية، وكانوا يصطحبون

كتبهم معهم، كما نقلت إلى شمال افريقيا وبخاصة المغرب كتب أندلسية كثيرة فى عصور مختلفة، كما حضر إلى الأندلس طلبة من المغاربة للدراسة وحملوا عند عودتهم إلى أوطانهم ما كانوا قد جمعوه من كتب هامة.

ولا نبغى الاستطراد فى هذا المضمار، حيث تذكر كتب التراجم أسماء كثيرة من الشخصيات التى أدخلت كتب المشرق إلى الأندلس وبالعكس، وتكفى الإشارة إلى أن " المقرى " فى " نفح طيبة " خصص المجلد الثانى فى التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق، كما خصص المجلد الثانى لذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق، وهؤلاء وأولئك كانوا يحملون معهم الزاد الفكرى المتمثل فى المؤلفات والمصنفات على اختلاف أنواعها وأحجامها وموضوعاتها.

أما بالنسبة لتبادل وانتقال الكتب بين الأندلس والدول الغربية، فأخذت عدة أشكال منها أن الكتب الأجنبية كانت ترد من الروم وغيرها من البلاد الغربية كهدايا إلى حكام المسلمين فى الأندلس، فقد أرسل "أرمانيوس" امبراطور الروم هدية إلى الخليفة الناصر لدين الله الأندلسى كانت عبارة عن كتابين، أحدهما كتاب "الحشائش المصورة" تأليف " ديسقوريدس "، والأخر كتاب " هيروسيوس " صاحب القصص وهو تاريخ للروم فيه أخبار الدهور وقصص الملوك الأول وفوائد عظيمة[٨٨].

هذا، وقد أرسلت إلى الدول الغربية كثير من المؤلفات الأندلسية، التى عمل على ترجمتها الغربيون إلى اللغة اللاتينية ـ وهى لغة البحث والدرس ـ وخاصة فى مجالات الهندسة والنجوم والطب، من أمثلة ذلك كتاب "مسلمة المجريطى" عن النجوم ترجمه "رودلفو دى بروخاس"، كذلك ترجم معظم

كتب "الزهراوى" فى الطب والجراحة، وخاصة كتابه الشهير "التصريف لمن عجز عن التأليف" الذى ترجمته إلى اللاتينية " جيرا رودى الكريمونى"(٨٩).

هذه أمثلة قصدت بها التمثيل الجزئى لا الحصر الكلى للمجال، ولمن يريد أن يستزيد فعليه الرجوع إلى قائمة المراجع التى أثبتناها فى نهاية البحث.

٢/٥ دراسة الاتجاهات العددية والنوعية للكتب فى الأندلس

وتشمل:

٢/٥/١ الدراسة العددية للكتب:

بداية تجب الاشارة إلى أنه من الصعب الحصول على إرقام يقينية لعدد الكتب للاعتماد عليها فى الدراسة والتحليل، وذلك لعدم توافر البيانات الدقيقة حول هذا العنصر، وهذا يعتبر فى حد ذاته مقياساً لصعوبة المهمة.

فالملاحظ من خلال المصادر التى تم فحصها أنها تذكر عبارات غير محددة للاشارة إلى عدد الكتب فى الأندلس، فنقرأ مثلاً "عنده ١٨ حملا من الكتب" و " حمولة ثلاثين جملاً من الكتب" و " كان ببعض المساجد كتب كثيرة" و " ترك عند وفاته ٦٠٠ صندوق متخم بالكتب " إلى آخر هذه العبارات التى لاتعطينا مؤشراً احصائياً دقيقاً أو قريباً من الدقة.

والأدهى من ذلك، لايوجد عمل بيلوجرافى واحد يتعرض لقضية الكتب فى الأندلس من حيث ضبطها والتعريف بها ودراستها كما وتحليلها نوعاً، حتى " فهرست " ابن النديم الذى " يحصر ويسجل ويصف الانتاج الفكرى الذى فرزته الثقافة الإسلامية والعقلية الإسلامية طوال القرون الأربعة الأولى من الهجرة"(٩٠). لا توجد به أية اشارات عن الكتب فى الأندلس أو حتى

المؤلفين الأندلسيين بالرغم من أنه فهرست كتب جميع الأمم ـ كما يقول ابن النديم فى بداية كلامه ـ من العرب والعجم، الموجود منها بلغة العرب وقلمها فى أصناف العلوم وأخبار مصنفيها، وطبقات مؤلفيها، وأنسابهم، وتاريخ مواليدهم، ومبلغ أعمارهم، وأوقات وفاتهم، وأماكن بلدانهم، ومناقبهم، ومثالبهم، منذ ابتداء كل علم اخترع إلى عصرنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وثلثمائة للهجرة(٩١).

وبعد هذا التحفظ، فان الأرقام المشار إليها فى الفقرات التالية ـــ والتى استخرجها الباحث من مختلف المصادر المتاحة ـ هى أرقام غير مؤكدة أو يقينية، ولكنها مجرد محاولات تقريبية من قبل من قال بها، قد تعطى بعض المؤشرات والاتجاهات بعد تحليلها والتعليق عليها، بهدف استكشاف واستبصار السبل والطرق نحو الضبط الببليوجرافى للانتاج الفكرى فى الأندلس.

* فى محاولة منه يتكهن "خوليان ريبيرا "(٩٢). المستشرق الاسبانى، بعدد الكتب التى كانت تنسخ سنويا فى قرطبة، ويعتمد فى هذا على مجموعة من الأسس هى:

  * عدد الطلاب الدارسين.
  * عدد النسوة اللاتى تكتبن.
  * عدد الوراقين.
  * عدد المكتبات.

ويذكر أن عدد الطلاب كان يتراوح ما بين خمسة آلاف وستة آلاف طالب، وكان يجتمع فى فصل واحد على مدرس واحد ألف طالب، وأن

هؤلاء كانوا ينسخون كل ما يلقيه عليهم أساتذتهم من علوم، وأنهم يدرسون في كل عام عدة كتب، كما أن مئات من النسوة كن يحترفن نسخ القرآن وكتب العبادة، وأن بعضهن كان ينسخ القرآن في اسبوعين، بالإضافة إلى أن عددا من الوراقين كان لهم نساخ خصوصيون يدفعون لهم أجورهم، وأن المكتبات الخاصة كان لها جماعات من الرجال المختصين لهذا العمل، لاستطعنا أن نقدر عدد الكتب بين سبعين وثمانين ألف نسخة تقريباً في السنة دون مغالاة على حد قول خوليان.

ويلاحظ على هذه المحاولة عدة أمور منها:

١ ـ ليس من المقبول ان لم يكن من المعقول أن يقوم مدرس واحد بالتدريس لألف طالب وأن هذه العدد فيه شئ من المبالغة.

٢ ـ لم يحدد أعداد بقية الفئات تحديداً احصائياً دقيقاً أو قريباً من الدقة.

وخوليان نفسه يحس بعدم دقة هذا العدد من الطلاب يقينياً، لذا نجده يركن ويستند على قول ابن بشكوال في ترجمته لعبد الملك بن زيادة الله بن على بن حسين بن محمد بن أسد اليمنى من أهل قرطبة، ما أنشده اغتباطا بالتفاف ألف تلميذ حوله في جامع قرطبة، ومع كل تلميذ محبرته وقلمه لينسخ ما يمليه عليه، إذ يقول:

انى إذا حضرتنى ألف محبرة ... تقول أنشدنى طورا وأخبرنى

ناءت باقليمى الأقلام ناطقة ... هذى المكارم لا قعبان من لبن

ومع هذا وذلك فهى محاولة أولية تحمد له فى هذا الصدد.

* وفى موضع آخر يشير "خوليان" إلى أن عدد الكتب بلغ المليونين عند فى أسبانيا[٩٣]، وهذا الرقم يشير إلى حجم الاقتناء الكلى، ومع ذلك لم يذكر

"خوليان" مصادره التى استمد منها هذا الرقم أو طريقته التى اعتمد عليها فى تقدير الرقم، وأغلب الظن أنه اجتهاد شخصى منه، كما أن الأرقام التى تنتهى بأصفار عادة مشكوك فيها إلى حد كبير ما لم تستند إلى الواقع الفعلى أو تعتمد على مصادر موثوق بها.

* وامتداداً لحجم الاقتناء، فقد أجمعت كل المصادر على أن مكتبة الخليفة الأموى الملقب بالحكم الثانى(٣٥٠-٣٦٦هـ) بقرطبة، قد حوت (٤٠٠ ألف مجلد)[٩٤].

* ويحاول البعض تقدير حجم الكتب فى الأندلس مسترشداً بحجم الكتب التى تم احراقها على يد الاسبان عندما دخلوا قرطبة وقضوا على الخلافة الإسلامية، وانهاء وجود المسلمين فيها نهائياً، وكان ذلك سنة ١٤٩٢م. ويعتقد هذا البعض أن حجم الكتب التى تم احراقها مؤشراً لبيان حجم الانتاج الفكرى فى البلاد ولو على وجه التقريب، وقد اختلفوا حول تقدير عدد الكتب التى أحرقت بين مقل ومكثر، فمنهم من يرى أن العدد يتراوح بين ٢٠٠ألف والمليون[٩٥].وهذا تقدير مبالغ فيه إلى حد كبير، حيث نجد أكثر الباحثين حذراً يقدر عدد الكتب التى احرقت فى غرناطة وحدها بثمانين ألفاً.[٩٦].

كل هذه الأرقام الاحصائية وغيرها مما يماثلها، وان كانت تعوزها الدقة والتمحيص، إلا أنها تعطى مؤشراً على أن حجم الانتاج الفكرى الأندلسى كان ضخماً بأى حال من الأحوال، وأن حجم مقتنيات المكتبات فى الأندلس كان ضخماً أيضاً بأى مقياس من المقاييس.

وما دمنا بصدد الحديث عن الانتاج الفكرى يكون من المناسب هنا الاشارة إلى فهارس وبرامج الشيوخ فى الأندلس، وهى تعطى مجموعة من

المؤشرات والحصائل منها: الجانب الكمى، فقد اهتم "علماء الأندلس بكتب الفهارس والبرامج أيما اهتمام، وعكف الكثير منهم على تأليف فهارس شيوخهم وهى تعد من المصادر التى لا يستغنى عنها الدارس للحركة الثقافية أو المؤرخ للحياة العلمية"(٩٧).

كانت هذه الفهارس والبرامج تشتمل على تجريد الكتب التى درسها الطلاب على أساتذتهم (شيوخهم) أو التى سمعوها منهم متضمنة بعض المعلومات الببليوجرافية عن هذا الكتب، بالاضافة إلى المعلومات البيوجرافية التى تذكرها عن هؤلاء الأساتذة، فهى إذن تصف الكتب وتترجم للمشايخ فى وقت واحد، لذا يمكن أن نطلق عليها الببليوجرافيات الحيوية أو الببليوجرافيات التكوينية بمصطلحات العصر الحديث ان جاز لنا التعبير.

وبناء على ما تقدم فان هذه الببليوجرافيات تبين لنا المحصول الثقافى "الذى يجب أن يتوافر فى شيوخ العلم، وتبيين لنا الطريقة الفضلى التى يسلكها طالب العلم فى رحلته وأخذه على الشيوخ فى متنوع اختصاصاتهم ومختلف نزعاتهم ومتعدد بلادهم، سعياً وراء طرق الأخذ بأنواعها، وسبل التلقى بأشكالها من اجازة وسماع وقراءة ومناولة للعديد من المؤلفات المنتسبة للكثير من المقاصد والوسائل التى كانت تزخر بها المكتبة العربية الإسلامية ونعنى بها مراكز العلم بأقطار الإسلام"(٩٨).

ومن أمثلة فهارس وبرامج الشيوخ فى الأندلس نجد:

١ ـ فهرس ابن عطية (ت: حوالى ٥٤٢هـ).

٢ ـ الغنية: فهرس شيوخ القاضى عياض (ت ٥٤٤هـ)

٣ ـ فهرسة ابن خير الاشبيلى (ت٥٧٥هـ)

٤ ـ برنامج التجيبى (ت٧٣٠هـ)

٥ ـ برنامج ابن جابر الوادى آشى (ت٧٤٩هـ)

٦ـ برنامج المجارى (ت٨٦٢هـ)

٧ ـ ثبت البلوى (ت٩٣٨هـ)

ويجب التنوية أن هناك فهارس وبرامج كثيرة قام بإعدادها الأندلسيون لا تزال مدفونة تحت غبار خزائن الكتب فى الخافقين، والتى لو ظهرت إلى النور وحققت تحقيقاً علمياً لأسهمت اسهاماً كبيراً فى تكملة الصورة الببليوجرافية للانتاج الفكرى فى الأندلس ومهدت الطريق لتحقيق ذلك.

٢/٥/٢ الدراسة النوعية للكتب:

يقصد بالدراسة النوعية هنا التعرف على الموضوعات التى عالجتها المؤلفات الأندلسية ودراسة هذا الجانب تكتنفه وتحوم حوله الشكوك أيضاً، فكل البيانات المتاحة والمستقاة من المصادر المختلفة تجنح إلى العمومية ولا تتعرض إلى الناحية الموضوعية بشئ من التركيز.

فالدراسات التى عالجت الحياة الفكرية والأدبية فى الأندلس، كانت تشير إلى موضوع التراث الفكرى الأندلسى بعبارات مطاطة وبيانات عريضة عامة، لا يعتمد عليها علمياً ولا يستند إليها منهجياً فى الدراسة التحليلية الموضوعية لهذا الانتاج من حيث التعرف على الحجم الكلى للموضوعات، والتوزيع النسبى لهذه الموضوعات، واستنتاج العلاقات الارتباطية بين الموضوعات وحجم الانتاج فى كل موضوع منها، سواء من حيث الكثرة أو القلة، وتحليل ذلك وتفسيره فى ضوء الظروف السائدة وقتذاك[٩٩].

وللتعرف على موضوعات المؤلفات الأندلسية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت، نسجل النص التالى الذى ذكره المقرى فى كتابه " نفح الطيب " لاستخلاص ما به من مؤشرات وتحليلها، يقول المقرى:(١٠٠).

" وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء، إلا الفلسفة والتنجيم، فإن لهما حظاً عظيماً عند خواصهم، ولا يتظاهر بها خوف العامة، فانه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه اسم زنديق، وقيدت عليه أنفاسه، فان زل فى شبهة، رجموه بالحجارة، أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة...

"وقراءة القرآن بالسبع، ورواية الحديث عندهم رفيعة، وللفقه رونق ووجاهة، ولامذهب لهم إلا مذهب مالك، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوى الهمم فى العلوم. وسمة الفقيه عندهم جليلة، حتى أن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذين يريدون تنويهه بالفقيه، وهى الآن بالمغرب بمنزلة " القاضى " بالمشرق، وقد يقولون للكاتب والنحوى واللغوى فقيه، لأنها عندهم أرفع الصفات...

"وعلم الأصول عندهم متوسط الحال. والنحو عندهم فى نهاية من علو الطبقة، حتى أنهم فى هذا العصر، فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه، لا يزداد مع هرم الزمان إلا جدة، وهم كثيرو البحث فيه، وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه، وكل عالم فى أى علم لايكون متمكناً من علم النحو، بحيث لا تخفى عليه الدقائق، فليس عندهم بمستحق للتمييز، ولا سالم من الازدراء...

"وعلم الأدب عندهم أنبل علم، وبه يتقرب من مجالس ملوكهم وأعلامهم، ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل. والشعر عندهم له حظ عظيم، وللشعراء من ملوكهم وجاهة، ولهم عليهم حظ

ووظائف. والمجيدون منهم ينشدون فى مجالس عظماء ملوكهم المختلفة، ويوقع لهم بالصلات على أقدارهم".

من هذا النص وما يماثله من النصوص الأخرى، نستنتج ما يلى:

١ ـ ان موضوعات العلوم كانت تمارس فى مختلف أنحاء الأندلس لا فرق فى ذلك بين علم وعلم، حتى العلوم التى كانت تحظرها عامة الناس ــ مثل الفلسفة والتنجيم ــ كانت الخاصة منهم تزاولها وان كانت لا تجاهر بها.

٢ ـ كانت موضوعات العلوم السائدة عند الأندلسيين تدور حول:

أ ــ العلوم الدينية والشرعية: وتضم القرآن الكريم من قراءات وتفسير، وعلوم الحديث الشريف، والفقه وأصوله ومذاهبه.

ب ــ علوم اللغة العربية وآدابها: كالنحو والصرف البلاغة وعلم العروض، والشعر والرسائل الأدبية والأزجال.

جـ ــ العلوم الفلسفية: كالفلسفة والمنطق والجدل والميتافيزيقا.

د ـ علم الفلك: ويشمل الأرصاد.

هذا بالإضافة إلى العلوم البحتة والتطبيقية كالطبيعة والهندسة والحساب والكيمياء والطب والزراعة ... الخ والعلوم التاريخية والجغرافية والتراجم والأنساب. وقد تمت الاشارة إلى بعض مفردات المصنفات فى هذه العلوم عند حديثنا عن العلوم وفنونها فى الأندلس قرب نهاية الفصل الأول.

ويجب ألا يغيب عن البال أن العهود الإسلامية السابقة سواء فى بلاد الأندلس أو فى غيرها من أصقاع البلاد الإسلامية، لم تكن عهود تخصص محدود، بل كانت عهودا تتسم بموسوعية المعرفة، فكان العالم مشاركاً فى كثير من الفنون من رياضيات وعلوم وطب وفلك وأدب وفلسفة وموسيقى

وسياسة إلى آخره من هذه المجالات والأنشطة العلمية، والشواهد على ذلك كثيرة لا تحصى ليس هنا مجال البحث عنها، ولندلل على ذلك بمثال واحد ــ من باب الاختصار ــ هو "لسان الدين الخطيب" الذى كان أديباً وشاعراً ومؤرخاً وطبيباً.

وهذا بدوره كان له إنعكاساته على الناحية الموضوعية للمؤلفات والمصنفات حيث "أصبح العالم لا يلتزم بموضوع محدد وانما يتعرض لأكثر من موضوع ويتناول أكثر من فن من فنون المعرفة"(١٠١).

وإذا انتقلنا إلى اسلوب الانتاج الفكرى: الأدبى أو العلمى فى الأندلس نجده يتسم بالتكلف وتبدو عليه آثار الصنعة والاهتمام بالمحسنات البديعية من لفظية ومعنوية، وكان هذا الأسلوب هو السائد فى المصنفات والمؤلفات فى جميع البلاد الإسلامية فى ذلك الوقت.

من استعراض ما تقدم للاتجاهات العددية والنوعية للانتاج الفكرى الأندلسى، وما يكتنفها من غموض إلى حد كبير لعدم توافر الدراسات والبحوث التى تكشف عن هذه الناحية بصورة علمية منهجية، وحصر هذا الانتاج من مظانه المختلفة والتعريف به، مع بيان ملامحه العامة وسماته التفصيلية بأسلوب علمى احصائى سليم، والوضع هكذا فان الأنمر يحتاج إلى تخصيص دراسة مستقلة لهذه القضية، مما وجد الباحث نفسه أمام اختيار واحد لا مناص منه ولا انفكاك عنه، ألا وهو إعداد مثل هذه الدراسة، وبالفعل قام الباحث بإعداد بحث قائم بذاته، لدراسة قضية الضبط الببليوجرافى المنهجى للانتاج الفكرى فى الأندلس، مستنداً إلى المنهج العلمى فى العرض والتحليل والاستنتاج والتفسير، ومتكئاً على القواعد الببليوجرافية المتعارف عليها.

ولم يشأ الباحث عرض عناصر الدراسة وتحليلها هنا وذكر مؤشراتها وحصائلها تجنباً للتكرار، وتكفى الاحالة إليها.(١٠٢)

الفصل الثالث

المكتبات فى الأندلس

- نشأة المكتبات فى الأندلس
- دراسة للاتجاهات العددية والنوعية للمكتبات فى الأندلس
- النظم الإدارية والفنية فى المكتبات فى الأندلس
- مكتبة قرطبة كنموذج للمكتبات الاندلسية
- بعض القضايا المرتبطة بالمكتبات فى الأندلس



الفصل الثالث

المكتبات فى الأندلس

يتناول هذا الفصل حركة المكتبات فى الأندلس من حيث نشأتها وتطورها، عددها ونوعياتها، ومصادر تكوين مجموعاتها، ونظم إدارتها، وطرق التنظيم الفنى للمقتنيات، كل ذلك بأسلوب ميسر مختصر، وأخيراً يتناول المبحث بالوصف والتحليل مكتبة قرطبة – بشئ من بسط القول – كنموذج مميز لهذه المكتبات، بهدف استبصار الوضع المكتبى فى الأندلس، والقاء الضوء على الواقع المكتبى الذى بلغ درجة عالية من النضج قبل أن تبلغه المكتبات القائمة فى أصقاع الامبراطورية الإسلامية فى ذلك الوقت.

٣ /١ نشأة المكتبات فى الأندلس

ارتبط ظهور المكتبات فى الأندلس ارتباطاً وثيقاً بحركة الانتاج الفكرى بها من حيث الكثرة والتنوع، وارتبطت هذه الحركة – بدورها – ارتباطاً وثيقاً بالحياة العقلية والفكرية فى البلاد.

وهذا ما يعبر عنه أهل الاختصاص – فى عصرنا الحديث – بجناح الانتاج بما يحتويه من البحث والخبرة والتكوين والتأليف، وحناح الاختزان والاسترجاع بما يحتويه من التحليل والتنظيم والخدمة[١٠٣].

فالمكتبات على أنواعها زادها الأساسى المؤلفات والمصنفات على تباين موضوعاتها واختلاف أنماطها وأعدادها من حيث الكثرة أو القلة، فهى تعتبر المرفق الحاضن لهذه الأوعية الفكرية، وأن هذه الأوعية ثمرة جهد المؤلفين والعلماء فى البحث والدراسة والخبرة والتجربة، وهذا كله نتيجة

طبيعية لرقى الحياة العقلية والعلمية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية السائدة فى ذلك الوقت؛ التى دفعت بحركة التأليف والابتكار إلى الأمام قدماً.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل تعود الدورة الفكرية حركتها تارة أخرى، وهذا ما يطلق عليه التغذية المرتدة Feedback أو التلقيم المرتد كما يسميه ميدوز[١٠٤]، حيث تقدم المكتبات خدماتها المعلوماتية المباشرة وغير المباشرة للباحثين والدارسين لتساعدهم على التكوين والبناء المعرفى، وتدفعهم إلى التأليف والانتاج الفكرى، وهكذا تستمر هذه المنظومة التى يمكن أن نعبر عنها بثلاثية: المدخلات، التجهيز، المخرجات بمصطلحات هذا العصر إن جاز لنا التعبير.

وفى الفصل الأول ألمحنا إلى الحياة العلمية والأدبية فى الأندلس، بشىء من غيض الفيض كما يقولون، كما أشرنا فى الفصل الثانى إلى حركة التأليف والانتاج الفكرى فى الأندلس، وفى هذا الفصل نتحدث عن الحلقة الثالثة الأخرى، ألا وهى المكتبات فى الأندلس، التى تعتبر دعامة من دعامات الحضارة الأندلسية.

ازدهرت حضارة الأندلس ازدهاراً عظيماً إبان الحكم الأموى للبلاد، فقد أشتهرت الأسرة الأموية بحب العلم وإكبار العلماء، ويظهر واضحاً منذ أن وطأت أقدامهم أرض الأندلس، فكان عبد الرحمن الداخل (١٣٨هـ ـ ٧٥٦م)[١٠٥] معروفاً باتساع ثقافته وعلمه، واستطاع بفضل المعيته وذكائه ان يبنى قرطبة ـ بعد أن اتخذها حاضرة للبلاد ـ فشيد المبانى الضخمة وأقام القصور، واهتم بنشر التعليم فأنشأ المدارس والمعاهد التعليمية، واهتم بنشر الثقافة الإسلامية فأنشأ المساجد ودور العبادة، حتى غدت قرطبة مهداً للحياة الراقية، ومصدراً للعلم والحضارة، وموطناً للفلاسفة

والشعراء، وموئلاً للعلماء والمفكرين، ومركزا للفنون والآداب، وبلغت تطوراً عمرانياً لا مثيل له فى دول الغرب المعاصرة.

ثم تولى بعد عبد الرحمن الداخل مجموعة من الأمراء كان لهم الفضل فى توطيد أركان الدولة الأموية بالأندلس سياسياً وحضارياً، فساروا على نفس النهج فى عنايتهم بالعلم والأدب ونشر الثقافة الإسلامية فى أرجاء الأندلس.

وقد أثمرت هذه السياسة وتلك الجهود العلمية ثمرتها لدى الأندلسيين، والتى تمثلت فى شغفهم بحب الكتب وجمعها وإزداد الشغف بالكتب ونما لدرجة قصوى جديرة بالاعجاب حقاً"[١٠٦].

ولم تكن هواية جمع الكتب واقتنائها وقفا على الأمراء والخلفاء، وانما شملت الشعب الأندلسى كله، حتى غدت المنافسة جادة بين هؤلاء الهواة وبين جماعى الكتب، وأصبحت عملية اقتناء الكتب علامة مميزة من علامات الرفعة والسؤدد، لا يستغنى الرجل منهم عن تأسيس مكتبة فى بيته حتى وان لم يكن على قدر مناسب من المعرفة، وصار ذلك عندهم "من آلات التعيين والرياسة حتى أن الرئيس منهم الذى لا تكون عنده معرفة يحتفل فى أن تكون فى بيته خزانة كتب، وينتخب فيها ليس إلا لأن يقال: فلان عنده خزانة كتب، والكتاب الفلانى ليس عند أحد غيره، والكتاب الذى هو بخط فلان قد حصله وظفر به"[١٠٧].

ونقرأ وصفاً شاهداً على ذلك ـ يدل على حب أهل قرطبة للكتب ـ ما ذكره "المقرى" على لسان "أبى يحيى الحضرمى" الرحالة المشهور وجمّاع الكتب، الذى غشى سوق الكتب فى قرطبة لشراء أحد الكتب، حيث جرى العرف على أن يتم البيع بالمزاد العلنى بوساطة خبير مثمن، جاء على لسان الحضرمى " أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة، أترقب فيه وقوع

كتاب كان لى بطلبه اعتناء، إلى أن وقع وهو بخط فصيح وتسفير مليح، ففرحت به أشد الفرح، فجعلت أزيد فى ثمنه، فيرجع إلىّ المنادى بالزيادة علىّ، إلى أن بلغ فوق حده، فقلت له ياهذا، أرنى من يزيد فى هذا الكتاب حتى بلغه إلى مالا يساوى، قال: فأرانى شخصاً عليه لباس رياسة، فدنوت منه وقلت له: أعز الله سيدنا الفقيه، ان كان لك غرض فى هذا الكتاب تركته لك، فقد بلغت فيه الزيادة بيننا فوق حده. فقال لى لست بفقيه ولا أدرى ما فيه، ولكنى أقمت خزانة كتب، واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد، وبقى فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد، استحسنته، ولم أبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق، فهو كثير. قال الحضرمى: فأحرجنى، وحملنى على أن قلت له: نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك، يعطى الجوز من لا له اسنان، وأنا الذى أعلم ما فى الكتاب، وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندى قليلاً، وتحول قلة ما بيدى بينى وبينه"(١٠٨).

وترسم هذه القصة ما كان عليه سوق الكتاب فى قرطبة من رواج بصورة أفضل من أى وصف آخر له، كما توضح فى الوقت ذاته أن جمع الكتب واقتناءها لم يكن يقصد به العلم دوماً، بل يقصد به الترف والجاه أحياناً، وأخيراً تبين لنا القصة صفات وفئات جماعى الكتب.

وهناك نصوص ليست قليلة ـ لا داعى لذكرها من باب الاختصار ـ تدل على أن الأشخاص العاديين الذين لم ينالوا قسطاً وافراً من العلم والمعرفة كانوا حريصين على ألا تخلو منازلهم من مكتبات تشتمل على أنفس الكتب.

ومن استقراء هذه النصوص وتحليلها يتبين لنا عدة أمور نجملها فيما يلى:

١ ـ كانت هواية جمع الكتب واقتنائها ـ والتى تمكنت من قلوب الأندلسيين — لها أكبر الأثر فى توسيع دائرة التأليف، وإحداث زيادة متنامية فى حركة النسخ، وتنشيط مستمر لحركة بيع الكتب.

٢ ـ كانت هذه الهواية وراء إنشاء المكتبات وخاصة فى قرطبة التى غدت أكثر بلاد الأندلس كتباً، وأصبح أهلها أشد الناس حباً فى إنشاء المكتبات.

٣ ـ أن أكثر أنواع المكتبات التى نشأت فى الأندلس يقع تحت فئة "المكتبات الخاصة" التى أنشأها الأفراد على اختلاف مستوياتهم.

٤ ـ ساعدت هذه الهواية على نشر التعليم ومحو الأمية، حتى أصبح أغلب السكان يعرفون القراءة والكتابة، ولا نغالى إذا قلنا أن الأندلس كانت آنذاك من بين البلاد القليلة فى العالم التى أضمحلت فيها الأمية حتى زالت أو كادت.

مما سبق يتبين لنا أن شغف الأندلسيين بجمع الكتب واقتنائها كان وراء مجموعة من الأنشطة الثقافية والعلمية — ساندتها ودعمتها ونهضت بها — كالتأليف والنسخ والتوزيع والتعليم وإنشاء المكتبات.

٢/٣ دراسة للاتجاهات العددية والنوعية للمكتبات فى الأندلس

وتشمل:

١/٢/٣ الدراسة العددية للمكتبات:

لاتوجد مصادر وافية نطمئن إليها للتعرف على عدد المكتبات فى الأندلس على وجه اليقين، لكن تبدو من الملاحظات المستقاة من النصوص المختلفة هنا أو هناك أن عدد المكتبات فى الأندلس لم يكن قليلاً بحال من الأحوال، وهذا ما تؤيده الأرقام التى حصلنا عليها وحللناها بعد مضاهاتها ومقارناتها بعضها ببعض فى المصادر المختلفة.

تجمع مختلف المصـادر علـى أن عـدد المكتبـات زاد زيـادة كبيرة فـى الأندلس، ومـع ذلـك لا تشير هـذه المصـادر إلـى عـدد كل نـوع مـن أنـواع المكتبات بصورة واضحة تساعد على الدراسة والتحليل الكمى، أو إلى عددها فى المدن المختلفة فى الأندلس، ولكنها تتحدث عنها جملة لا تفصيلا.

وفـى محاولـة للتعرف علـى هـذه الجوانـب نسـوق مجموعـة مـن النصوص المستقاة من عدة مصادر، لتحليلها واستخلاص ما يعن عنها مـن استنتاجات

* تشير دائرة معارف القرن العشرون إلى أنه "كـان فـى الأندلـس ٧٠مكتبـة عامة وكثير من المكتبات الخاصة"[١٠٩].

* ويذكر محمد محمد امان أنه "خلال الازدهار العظيم للثقافة الإسـلامية فـى الأندلس، كان هناك ما يقارب سبعين مكتبة عامة[١١٠].

* وتشير المستشرقة الألمانية ويغريد هونكه إلى أنه كان يوجـد "فـى قرطبـة وحدها عشرون مكتبة"[١١١].

* أما محمد عجاج الخطيب فيقول "كثرت المكتبات فى الأندلس وبلغت نحـو سبعين مكتبة أيام الخلافة سوى المكتبات الخاصة"[١١٢].

* وتذكر مجلة "المقتطف" أنه كان فى الأندلس سبعون مكتبة عمومية (عامة) عدا عن المكاتب الخصوصية (المكتبات الخاصة) التى كان بعضها كبيراً جداً"[١١٣].

مـن خـلال هـذه النصـوص وغيرهـا ممـا يماثلهـا يمكـن أن نسـتنتج بعـض المؤشرات، نسجلها على النحو التالى.

١ ـ بلغ عدد المكتبات فى الأندلس أكثر من سبعين مكتبة عامة، أى كان يحق للجمهـور العـام استخدامها والاستفادة مـن مقتنياتهـا، واسـتخدام بعـض

المصادر السابقة لكلمات مثل " نحو " أو " ما يقارب " دليل على عدم التيقن من معرفة العدد الفعلى أو الحقيقى لهذه المكتبات فى الأندلس.

٢ ـ من المؤكد أن عدد المكتبات الخاصة بالأفراد كان يفوق الحصر، دليل ذلك لم يشر أى مصدر إلى هذا العدد أو حتى بطريقة تقريبية. وقد ذكر المستشرق الأسبانى "خوليان ريبيرا " عددا كبيرا من أصحاب هذه المكتبات كنماذج لهذا النوع من المكتبات[١١٤].

٣ ـ أن المكتبات بنوعيها سواء كانت عامة أو خاصة ازدهرت إبان ازدهار الحضارة الإسلامية فى الأندلس، وواكبت التقدم العلمى الحادث فى البلاد، وهذه نتيجة طبيعية، حيث تعتبر المكتبات فى كل مكان وزمان مرآة عاكسة لهذه التطورات الحضارية والعلمية.

٤ ـ أن أكثر المكتبات العامة عددا كان يوجد فى قرطبة حاضرة البلاد، حيث بلغ هذا العدد (٢٠) مكتبة، وهذا مؤشر صدق، فقد جرى العرف ــ ولا يزال ــ أن تكون العاصمة فى أى قطر ما هى مركز الثقل العلمى والنشاط الثقافى، ومن ثم تكثر فيها المكتبات عددا وتزداد حجما، كاحدى النتائج المباشرة للناحيتين العلمية والثقافية.

وأخيراً وليس بآخر فقد عجزت مختلف المصادر عن إمداد الباحث بقسط وافر من الإحصائيات اللازمة للتحليل الكمى للمكتبات فى الأندلس، حتى أصبح ليس فى الامكان أبدع مما كان، ومع ذلك فان الخروج بالمؤشرات السابقة لهو نوع من النجاح الجزئى لدراسة وتحليل هذا العنصر.

٢/٢/٣ الدراسة النوعية للمكتبات:

يقصد بالدراسة النوعية للمكتبات التعرف على مختلف أنواع المكتبات فى الأندلس، والمكتبات فى الأندلس ـ كما سبق القول ـ هى نتاج الحضارة

الإسلامية وانعكاس صادق لها، وهى (أى المكتبات) فى ذات الوقت رافدا رئيسيا فى تغذية وإمداد وترقية وتوسيع نطاق هذه الحضارة.

ومن ثَّم عندما ازدهرت الحركة العلمية وزاد التقدم الحضارى فى الأندلس، زاد بنفس القدر عدد المكتبات بها، وتنوعت أغراضها حتى شملت كل أنواع المكتبات الموجودة فى أيامنا هذه، مثل مكتبات المساجد والجوامع، المكتبات الخاصة، المكتبات العامة، المكتبات المدرسية، المكتبات الأكاديمية، مكتبات المشافى والمارستانات (البيمارستانات)، لدرجة أصبح من الصعب حصر مفردات هذه الأنواع والحديث عنها، لأن ذلك يفوق الحصر، لذلك نكتفى بذكر الأمثلة فقط من هذه الشواهد للتدليل على ما نذهب إليه.

وفى الفقرات التالية عرض مبسط لبعض هذه المكتبات النوعية فى الأندلس أو فى المغرب الأقصى باعتبارهما وحدة جغرافية وتاريخية واحدة، حيث يطلق عليهما "العدوتين"، من أجل كشف النقاب عن هذه المكتبات واماطة اللثام عنها.

١ - مكتبات المساجد والجوامع:

يعتبر هذا النوع من المكتبات أول الأنواع نشوءا فى الإسلام، فقد جرت العادة ولا تزال أن يودع بعض وجهاء الناس وعليه القوم فى المساجد عددا من نسخ القرآن وعددا آخر من الكتب الدينية، لفائدة المطالعين من المصلين رواد هذه المساجد. ولا تسعفنا المصادر فى معرفة أول مكتبة مسجدية أنشئت فى الأندلس وتحديد مكان وتاريخ انشائها بالضبط، ومع ذلك يمكن القول أن مكتبة المسجد ظهرت للوجود منذ اتخذ المسلمون المسجد مكاناً للدراسة، فلا دراسة بدون كتب، ومن ثم كانت المكتبات احدى طرق المسلمين فى نشر الدين والعلم، وكانت المكتبات من هذا النوع كثيرة جداً لدرجة أننا لا نستطيع استقصاء أخبار المساجد التى وجدت بها مكتبات ذات

أهمية، ومع ذلك يمكن القول أنــه قلما خـلا مسجد مـن مسـاجد الأندلـس مـن مكتبة تحتوى على مجموعة من الكتب يرجع إليها الدارسون والقراء.

ومن أشهر مكتبات المساجد فى الأندلـس مكتبـة جـامع قرطبـة ومكتبـة جامع طليطلة، وقد كان لحلقات الدرس والبحث التى تعقد فـى جـامع طليطلـة شهرتها وأهميتها ومكانتهـا التـى جذبـت الطـلاب مـن كـل مكـان، واحتفظـت طليطلة بهذه المكانة حتى بعد سقوطها على يد الأسبان سـنة ١٠٨٥م، حيـث وجد فيها هؤلاء مكتبة غنية عامرة حافلة بالكتب فى أحد مساجدها وقد بلغـت شهرة هذه المكتبة من حيث هى مركـز للثقافـة أقصـى البـلاد النصرانيـة فـى الشمال(١١٥).

٢ ـ المكتبات الخاصة.

ويقصد بها المكتبات التى تخص أفـراد معينيـن، أنشـأوها علـى نفقتهـم الخاصـة ولفـائدتهم ولمصلحتهـم الشـخصية، فقـد درج القـوم بـالأندلس وفــى المغـرب الأقصى كذلك على حـب الكتـب والاهتمـام بجمعهـا وانشـاء مكتبـات خاصة بهم للتباهى بهـا، ويرجـع البعض ذلـك إلـى أن "حـب التملـك غريـزة فطرية فى الإنســان، وحيثمـا توجـد كتابـة وكتـب، تجـد تلـك الغريـزة مجالهـا للانطلاق، ومن أجل ذلك ظهرت المكتبات الخاصة فى الدولة الإسـلامية منـذ وقت مبكر "(١١٦) كما ساعد على نمو هذه الظاهرة وانتشارها بصــورة كبيـرة بين الناس فى الأندلس "انتشار استعمال الورق ورخـص ثمنـه وهبـوط أثمـان الكتـب، نتيجـة لرخص المـواد التـى تصنــع منهـا ولرخــص أجـور النسـخ والتجليد"(١١٧). هذا بالإضافة إلى الأجواء الفكريـة والسياسـية السـائدة آنـذاك، حيث كانت البلاد تزخر برقى حضارى وخاصة المدن الكبرى مثـل قرطبـة، علاوة على تشجيع الحكام للعلم والتوسع فيه على نطاق أكـبر، وكـان الحكـام أنفسهم مثلا يحتذى فى حب الكتب وجمعها والاهتمام بها.

وقد أشار " خوليان " المستشرق الأسبانى فى مقاله المشار إليه سلفاً[١١٨]، إلى عدد كبير من أصحاب المكتبات الخاصة فى الأندلس سواء كانوا من الرجال أو النساء، ومن ثَّم لا نريد أن نستطرد فى ذكر الأمثلة، بل نكتفى بمثالين من الأندلس وثالث من المغرب الأقصى نريد أن نستطرد فى ذكر الأمثلة، بل نكتفى بمثالين من الأندلس وثالث من المغرب الأقصى صنو الأندلس:

* فمن كان لهم فى الأندلس همة عالية فى جمع الكتب وإنشاء مكتبة خاصة به، القاضى أبو المطرف عبد الرحمن بن فطيس (٣٤٨-٤٠٢هـ) يقول عنه ابن بشكوال: كان حسن الخط ، جيد الضبط، جمع من الكتب فى أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس مع سعة الرواية والحفظ والدراية، وكان له ستة وراقين ينسخون دائماً وكان قد رتب لهم على ذلك راتباً معلوماً، وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه للابتياع منه وبالغ فى ثمنه فان قدر على إبتياعه وإلا انتسخ منه ورده إليه ... وبلغ من كثرة كتبه أن أهل قرطبة اجتمعوا لبيع كتبه مدة عام كامل فى مسجده، وأنه اجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار قاسمية[١١٩].

* والمثال الثانى الذى نسوقه هنا يخص الجنس الآخر، ذلك أن المكتبات الخاصة فى الأندلس لم تكن مقصورة على العلماء والأدباء من الرجال، بل وجدت فى الأندلس نساء عالمات، اهتممن بجمع الكتب، من هؤلاء عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم (ت٤٠٠هـ) وهى قرطبية، يقول عنها ابن بشكوال لم تكن فى جزائر الأندلس فى زمانها من يعادلها فهما وعلما وأدباً وشعراً وفصاحة وجزالة وحصافة... وكانت حسنة الخط تكتب المصاحف والدفاتر وتجمع الكتب وتعنى بالعلم ولها خزانة علم كبيرة وحسنة، ولها غنى وثروة تعينها على المروءة[١٢٠].

* وفى المغرب الأقصى، تبرز فى مقدمة المكتبات الخاصة "الخزانة المنصورية" بمراكش، يجمع المؤرخون على أن فترة حكم السعديين (٩١٥-١٠١٢هـ) تعد أهم فترة فى تاريخ المغرب، تزخر بكثرة المراكز الثقافية ووفرة العلماء واهتمام الخلفاء بالعلم والثقافة، وقد لعبت مراكش دوراً ثقافياً هاماً فى تاريخ المغرب خلال حكم الأسرة السعدية، حيث جلبت وجذبت عدداً كبيراً من العلماء والمؤلفين والكتاب، الذين حظوا باهتمام الأمراء السعديين، وكان ثمرة ذلك كله أن ازدهرت المكتبة المغربية وامتلأت بأمهات الكتب العربية. كان أحمد المنصور الذهبى شغوفاً بدراسة الكتب وجمعها، وكان يدعو العلماء من الأندلس والمغرب خصيصاً للتأليف لخزانته، وكان من نتائج الهجوم الصليبى الأسبانى فى أوائل القرن العاشر الهجرى على الجزائر وتونس، أن التجأت طائفة من العلماء الجزائرين والتونسيين يحملون مخطوطاتهم إلى مراكش، بالإضافة إلى مذابح الأتراك التى كانت عاملاً من عوامل هجرة عدد كبير من علماء الجزائر إلى مراكش حاملين ما ضمته مكتباتهم من تراث ثقافى اسلامى خوفاً عليه من الاحراق، كل هذا كان من اهم المنابع التى استقت منها الخزانة المنصورية ذخائرها ونفائسها، فجمعها المنصور بعد جهد جهيد، وزاد عليها خلفه السلطان مولاى زيدان لما كان له أيضاً من حب عميق للكتب والمكتبات(١٢١).

وبالرغم من ان هذه المكتبات وما يماثلها كانت خاصة بالأفراد، إلا أنه كان يباح دخول جل هذه المكتبات للناس جميعاً للقراءة والبحث والاطلاع والتثقيف.

٣ ـ المكتبات العامة:

تدل كثرة المكتبات العامة وما تزدحم به من مؤلفات فى شتى فروع المعرفة الانسانية، تدل على مدى ازدهار الحركة الفكرية فى البلاد، وقد حظى الأندلس والمغرب الأقصى خلال عهد الموحدين بالكثير من المكتبات العامة. وفى مقدمة هذا النوع تقف " المكتبة الملكية " أو " الخزانة العلمية " كما كانت تسمى بذلك، وهذه المكتبة أنشأها خلفاء الموحدين، وجعلوا لها أميناً، وزودوها بمختلف الكتب والمراجع، كذلك نجد " المكتبة الشارية " بسبته وهى منسوبة لمؤسسها " أبى الحسين على بن محمد الغافقى المعروف بالشارى (ت٦٨٤هـ)، وكان شغوفاً بجمع الكتب، فكون مكتبة عظيمة جعلها للناس عامة وللعلماء خاصة، وكانت هذه المكتبة تجمع بين رفوفها الكثير من ذخائر الكتب ونفائس المخطوطات [١٢٢].

٤ ـ المكتبات الأكاديمية:

يقصد بها المكتبات المخصصة للبحث والدرس لطلاب الدراسات العليا والأساتذة العلماء، والملحقة بمختلف معاهد التعليم العالى. وظهر هذا النوع من المكتبات فى بلاد الإسلام منذ القرن الثانى الهجرى، بصورة تدعو إلى الفخر، حيث كانت هذه المكتبات مراكز بحث بالمفهوم الدقيق للكلمة. ولابد من التنبيه بأن الحركة العلمية والتعليمية بدأت من المسجد، أى أن المساجد كانت أمكنة للتعليم فى بداية الأمر، ولما إكتظت هذه المساجد بالطلاب وزاد عدد المقررات الدراسية وتباينت موضوعاتها وتنوعت طرق الدراسة والبحث، لم تعد المساجد مناسبة للعملية التعليمية، ومن ثم أنشئت المدارس بأبنيتها الخاصة وانتشرت انتشارا واسعاً فى المدن الأندلسية، وخاصة فى قرطبة، وقد ألحق بجميعها مكتبات قيمة، قدمت خدماتها للطلاب والدارسين ـ آنذاك بصورة جيدة. أما المكتبات الأكاديمية فقد أنشأها الخلفاء واعتنى بها

الأمراء، وزاد عددها بصورة كبيرة، ولعل أعظمها فى البلاد الإسلامية ـ كما ذكر القلقشندى فى "صبحه" ـ كانت ثلاث هى : خزانة الخلفاء العباسيين فى بغداد والفاطميين فى مصر والأمويين فى الأندلس[١٢٣]. وهذه الأخيرة هى موطن الاهتمام فى بحثنا هذا، وأرجئ الحديث عنها فيما بعد، حيث اتخذتها كنموذج للمكتبات الأندلسية قاطبة، لدراستها وبحث عناصرها المختلفة بتوسع بعض الشئ.

وقبل أن يمتد بنا الحديث عن أحدث وأضخم مكتبة تضم مجموعات نفسية من التراث الأندلسى، لابد من الاشارة إلى قضية هامة ترتبط بالمكتبات النوعية التى عرضنا لها باختصار سلفا، ألا وهى أن هذه المكتبات النوعية لم يكن بينها فروق حدية فاصلة بين كل نوع والنوع الآخر، ومن ثم فليث من المستبعد أن نجد بعض المكتبات الخاصة بالأفراد، يؤمها الناس للاطلاع والمذاكرة حتى ليخيل لنا أنها مكتبة عامة وهكذا.

وما دمنا بصدد الحديث عن المكتبات فى الأندلس، فلا مناص ولا فكاك من الإشارة إلى أهم مكتبة لازالت قائمة حتى يومنا هذا، ألا وهى مكتبة "الاسكوريال" التى تضم أضخم مجموعة فريدة من التراث الأندلسى.

ويقع قصر الاسكوريال فى الضاحية المسماة باسمه، وهى تقع على مقربة من مدريد، على مسافة ٤٩ كم غربى مدريد. وأنشأه الملك "فيليب الثانى" سنة ١٥٥٧م، ويعتبر القصر من أعظم الصروح الملكية فى أوروبا، وأعجوبة العالم الثامنة كما يقول البعض، ويضم القصر مقاماً ملكياً وديرا وكنيسة ومكتبة ومعهدا دينياً ومدفناً ملكيا ومتحفا.

وتقع المكتبة ـ وهى موضع الاهتمام هنا ـ فى الجانب الأيمن من القصر، وتضم بهوا شاسعاً فخماً تعرض فيه بعض المخطوطات النفيسة

النـادرة، ومنهـا مصحـف ملكـى كريـم كـان ملكـاً للمنصـور السـعدى سـلطان المغرب(١٢٤).

وتحتوى مجموعات المكتبة على ستين ألف مجلد(١٢٥). فى حين يذكر البعض الآخر أن عدد المجموعات بها خمسين ألف مجلد (١٢٦)، كما تضم من بين هذه المجموعات عشرة آلاف مخطوط تعتبر من نوادر المخطوطات ذات القيمة التاريخية والفنية.

وتكونت مجموعات المكتبة من عدة مصادر هى:

١ **الشراء:** حيث كانت فى بدايتها تتكون من المكتبـة الملكيـة الصـغيرة، ومـا لبث أن قام سفراء الملك "فيليب الثانى" بشراء مجموعة من المخطوطـات النادرة من مختلف أقطار العالم لحساب المكتبة.

٢ ـ **مجموعة من المخطوطات العربية** بلغت بضعة آلاف جمعت بعد سقوط غرناطة ومن سائر القواعد الأندلسية المغلوبة.

٣ ـ **الاستيلاء على مكتبة " مولاى زيدان السعدى " (١٠١٢هـ ـ ١٠٣٧هـ)** سلطان مراكش عام ١٦١٢م وضمها للمكتبة (الاسكوريال)، وكان المولـى زيدان مولعا ولعا شديدا بالكتب، وعندما وقعت الفتنة واشتد الخـلاف بينـه وبين اخوته، خشى أن تذهب الفتنة بمكونات خزانة كتبه التى تقدر بأربعة آلاف مجلد من أنفس الكتب العربية من حيث اختيـار الموضـوع، وجمـال المخطوط، وآثر انقاذهـا والمحافظـة عليهـا، فأستأجر لهـا سـفينة فرنسـية حملها كل هذا التراث، وبينما السفينة فى عرض البحر فى مياه المغـرب، اعترضتهـا سـفن قرصنـة أسـبانية وأخذتهـا غنيمـة إلـى السـاحل الأسـبانى واستولت على الكتب، لتستقر فى مكتبة الاسكوريال بمدريد(١٢٧).

ولمكتبـة الاسـكوربال فهـرس بعنـوان "المكتبـة العربيـة الأسـبانية فـى الاسكوريال" فى جزءين كبيرين أعدهما "ميخائيل الغزيرى، ظهـر الأول فـى

سنة ١٧٦٠م والثانى فى سنة ١٧٧٠م ودرس فيهما محتويات المجموعة العربية دراسة وافية. وقد اتكأت عليه فى دراستنا للضبط الببليوجرافى للانتاج الفكرى فى الأندلس كأحد المصادر الاقتنائية(١٢٨).

وتعرضت " مكتبة الاسكوريال" طوال تاريخها إلى محن كثيرة فقد وقع فى سنة ١٦٧١ حريق هائل فى المكتبة أتى على جزء كبير من مقتنياتها، ولم يبق إلا القليل من الكتب، قدره البعض بأكثر من ألفين(١٢٩).

ومن نافلة القول أن مكتبة الاسكوريال ليست هى المكتبة الوحيدة التى تحتوى على كتب التراث الأندلسى، ولكن توجد بعض هذه الكتب فى المكتبات الأسبانية الأخرى، مثل مكتبة مدريد الوطنية ومكتبة أكاديمية التاريخ الملكية ومكتبة دير ساكرومنتى بغرناطة.

٣/٣ النظم الإدارية والفنية فى المكتبات فى الأندلس

يقصد بها مجموعة التدابير والإجراءات الإدارية، والانشطة والعمليات الفنية التى تتم فى المكتبات لتحقيق أهدافها من ناحية وتحقق ذاتيتها وتميز شخصيتها من ناحية أخرى، وتبرر دورها كمرفق من مرافق المعلومات من ناحية ثالثة.

من هذه الأنشطة وتلك الاجراءات بناء وتنمية المجموعات، الاعداد الفنى لهذه المجموعات كالفهرسة والتصنيف ونظم الترتيب، كذلك المقر والأساس والعاملين من حيث وظائفهم ومسمياتها ومؤهلاتهم وتدرجهم فى السلم الوظيفى، والميزانية ومصادرها وأوجه صرفها.

ولم يشأ الباحث دراسة هذه الأمور نظرياً، بل فضل ربطها علمياً، وبيان ما يتم بشأنها فى المكتبات الأندلسية، وهذا أوقع وأكثر نفعاً، لذا فقد تمت معالجة مثل هذه الأمور ضمن العنصر التالى.

٣/٤ مكتبة قرطبة كنموذج للمكتبات الأندلسية

نظرا لكثرة عدد المكتبات وتنوعها فى الأندلس، رأى الباحث ــ تجنباً لتشعب البحث ـ الاكتفاء بدراسة تفصيلية لأهم هذه المكتبات كنموذج لما كانت عليه المكتبات فى الأندلس، ذلكم هى مكتبة الحكم، اسماً أصبح علماً، ان أطلق فلا يدل إلا عليها، ومكتبة الحكم أو مكتبة قرطبة ــ كما تسميها بعض المصادر ـ كانت تحتل المرتبة الأولى، ليس فقط فى الأندلس بلد المقر، بل أيضاً على مستوى مكتبات أصقاع الأمبراطورية الإسلامية قاطبة وقتئذ، ففضلا عن مكانة أصحابها، كانت تمتاز بضخامة مجموعاتها من حيث الكم والنوع.

وقد مر قيما سبق بيان ما كانت عليه بلد الأندلس من رقى حضارى وتقدم علمي، ومدى شغف أهلها بحب اقتناء الكتب، ومدى اهتمام حكام البلاد بتنشيط الحركة العلمية والأدبية فى البلاد، ومدى الاهتمام بالكتاب الإسلامى تأليفا ونشرا وتوزيعا.

هذه العوامل وغيرها مما يماثلها كانت وراء نشأة المكتبات فى الأندلس، ولا داعى للحديث عنها مرة أخرى تفصيلا تجنبا للتكرار وتوفيراً للجهد والوقت، ويكفى التنويه إلى هذه العوامل باقتضاب فيما يتعلق بنشأة هذه المكتبة، لأنها هى التى هيأت البيئة وجعلتها صالحة لنشأتها وازدهارها.

٣/٤/١ نشأة المكتبة

يرجع تاريخ إنشاء المكتبة إلى عصر محمد الأول (٢٣٨-٢٧٣هـ) فقد عرف عن الأسرة الأموية اهتمامها بالتعليم، ومن ثَّم حبها للكتب التى هى وسيلة التعليم.

وقد أشار المؤرخون عند كلامهم على عصر محمد إلى المكتبة الملكية على أنها أحسن ما فى مدينة قرطبة[١٣٠].

تولى الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر حكم الأندلس (٣٠٠-٣٥٠هـ) الذى يعتبر أول من سمى نفسه أمير المؤمنين، وذلك عندما ضعفت الخلافة العباسية واستبد الاتراك بالأمر دون الخلفاء(١٣١).

استمر حكم أمير المؤمنين عبد الرحمن نصف القرن من بداية القرن الرابع الهجرى حتى منتصفه، عمل خلال هذه السنوات على بناء الدولة وتوطيد دعائم الاستقلال والاستقرار حتى غدت الأندلس موضع اعتبار وتقدير فى المحيط الدولى آنذاك، وأصبحت قرطبة عاصمة عالمية تحظى باهتمام خاص من مختلف الدول وتستقبل كثيراً من وفود هذه الدولة وسفرائها الذين يرغبون فى أيجاد صلة وثيقة بينهم وبين الخلافة الإسلامية فى الأندلس.

واشتهر عبد الرحمن الناصر بحبه للكتب حتى بلغت شهرته الامبراطور اليزنطى (قسطنطين) السابع، الذى لم يجد شيئاً يتقرب به إلى قلب الناصر - حينما عزم على عقد معاهدة معه - سوى أن يهديه كتابا جديدا لم يعرفه من قبل، وهو كتاب ديسقوريدس، وكانت النسخة رائعة كتبت بحروف من ذهب وزينت برسوم جميلة تمثل النباتات الموجودة فى النص[١٣٢]. وحبه للكتب جعله يهتم بمكتبة القصر الملكية وذلك بتزويدها بكل ما هو نفيس من الكتب.

وفى تلك الأيام بدأ كل من ولديه الأميرين الحكم ومحمد دراستهما تحت إشراف معلمين من أهل البلاد وخارجها، وقد زاد شغفهما بالكتب إلى درجة قوية جعلتهما لا يرضيان عن مكتبة أبيهما، وبدأ يتنافسون فى طلب العلم ويتناغيان فى جمعه ويتباريان أيهما يستطيع أن يجمع مكتبة أكثر عدداً وأفض اختيارا من الآخر، وعندما توفى محمد آلت كتبه لأخيه الحكم وورثها عنه[١٣٣].

وفى منتصف القرن الرابع الهجرى ـ وتحديدا سنة ٣٥٠هـ ـ تولى مسئولية الحكم فى الأندلس، خليفة أفاضت المصادر التاريخية ـ قديمها وحديثها ـ فى الحديث عنه والاشادة به، وبيان مدى شغفه بالكتب والمكتبات ومقدار اهتمامه بالعلم والعلماء، انه "الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله" والمعروف فى تاريخ الأندلس بـ "الحكم الثانى". تولى حكم البلاد ـ عقب وفاة أبيه ـ فى الفترة (٣٥٠-٣٦٦هـ)، وامتازت هذه الفترة ـ على قصرها ـ بنشاط علمى وثقافى متعدد الجوانب، فورث عن أبيه ملكاً ثابت الاركان مستقر الدعائم، وخزائن كانت تزخر بما فيها من أموال ضخمة، حيث كانت الميزانية السنوية للبلاد ـ آنذاك ـ " تدور حول ١٢ مليونا و ٤٥ ألف دينار من الذهب"(١٣٤).

فى هذا المناخ المتميز بالاستقرار السياسى والرخاء الاقتصادى، قامت النهضة الفكرية فى البلاد وبدأت الحركة العلمية تأخذ دورها فى الازدهار حيث جعل الحكم الثانى كل هدفه السير بالأندلس قدما فى طريق العلم والمعرفة ليتبوأ أعلى مكانة بين الأمم المتحضرة.

وقد ترجم هذا الهدف الى سلوكيات محسوسة وأعمال ملموسة، فاهتم بالعلم والعلماء وأنشأ سبعا وعشرين مدرسة جديدة يتعلم فيها أبناء الشعب مجانا، ودفع من ماله الخاص أجور معلميها، كما ساهم بنفسه فى كل نواحى النشاط العلمى والأدبى، فأقام للعلم سوقاً نافقه جُلبت إليها بضائعه من كل قطر، واستغل الثروات الضخمة التى تركها له أبوه فى الانفاق على الأبحاث العلمية وشراء الكتب.

وكان طبيعياً أن يوجه الحكم جل اهتمامه إلى بناء وتنمية مجموعات مكتبته الخاصة، فنشر رجاله فى كل مراكز الثقافة الإسلامية يبحثون عن النادر من الكتب والمخطوطات ويدفعون أغلى الأثمان بغية الحصول عليها،

بل وكانوا يصادقون تجار الكتب فى كل مكان ليدلوهم على ما صدر منها وما هو بسبيله إلى الصدور، وكان يحدث كثيراً أن يشتروا الكتب من مؤلفيها أو ناشريها لتصدر فى الأندلس قبل أن ترى النور فى بغداد أو الموصل أو البصرة أو مصر، حيث كان الحكم يجد متعة كبيرة فى أن يكون أول قارئ لما يصدر من الأبحاث الجديدة، وكان الموردون ـ بلغة عصرنا الحالى ـ ينتخبون له غرائب التواليف وأنفسها، وحكى القوم الكثير عن حب الحكم للكتب ـ فعلى حد تعبير المقرى ـ كان محباً للعلوم مكرماً لأهلها جماعا للكتب فى أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله(١٣٥).

وهكذا تكونت مكتبة "الحكم الثانى" من اجتماع ثلاث مكتبات هى: مكتبة القصر التى اشتملت على ما جمعه أسلافه، ومكتبة أخيه محمد التى ورثها بعد وفاته، ومكتبته الخاصة التى جمعها من كل حدب وصوب. وأخذ الحكم فى تنمية مجموعات المكتبة الجديدة حتى بلغ عددها ٤٠٠ألف مجلد على أصدق الروايات.

٣/٤/٢ مصادر بناء وتنمية مجموعات المكتبة

ثمة مجموعة من المصادر التى اعتمدت المكتبة عليها فى بناء وتنمية مجموعاتها، وهى تكاد تكون نفس المصادر التى تعتمد عليها بقية المكتبات فى هذا الصدد فى الأندلس، بل وحتى المكتبات فى بلاد العالم الاسلامى، نذكر هذه المصادر ـ باختصار ـ فيما يلى:

١ ـ الشراء:

ويعتبر المصدر الأهم فى جمع الكتب وبناء المجموعات، وقد مر الالماع إلى ما كان ينفقه الحكم الثانى فى شراء الكتب ونوادر المخطوطات بأثمان عالية، حتى يستطيع أن يجمع بأسرع وقت الكتب القيمة، وقد فعل القوم ذلك ـ فالشعوب على دين ملوكهم ـ حيث كانوا ينفقون على شراء الكتب

بسخاء، ومن الشواهد على ذلك نكتفى بالاشارة إلى القاضى أبى المطرف عبد الرحمن بن فطيس (٣٤٨-٤٠٢هـ) - وهو من رعايا المسلمين - الذى جمع من الكتب فى أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره، وكان يزود مكتبته بمصادر كثيرة أولها الشراء[١٣٦].

٢ - النسخ:

وكان هناك نساخون يعملون - بصفة دائمة - فى نسخ الكتب لتزويد المكتبات بها، وهو مصدر هام فى عملية بناء وتنمية المجموعات، حيث كان يصدر (ينسخ) من الكتاب نسخاً محدودة العدد، مما احتاج الأمر - عند طلب الكتاب لا قتنائه فى المكتبة - أن ينسخ مرة أخرى، وكان الحكم الثانى يستخدم فى مكتبته جيشاً من النساخين والمزخرفين والخطاطين الذين يعملون لحاجات المكتبة[١٣٧]. وكان يعمل فى مكتبة ابن فطيس - سالف الذكر - باستمرار ستة من النساخين لا يتقاضون أجرهم على ما ينسخون فقط، بل يتناولون أجرا ثابت القيمة، حتى لا تؤدى العجلة إلى الوقوع فى أخطاء فى الكتابة[١٣٨].

٣ - الوقف:

وكان يمثل مصدرا لابأس به فى إغناء المكتبات بالمجموعات القيمة، وقد مر سلفا أن القوم سواء الحكام أو المحكومين - كانت لديهم الرغبة الشديدة فى وقف الكتب على مختلف معاهد التعليم وانشاء المكتبات بها، حتى ينالوا الأجر والثواب (صدقة جارية) من جهة، ولافادة طلاب العلم من جهة أخرى.

" وتنوع الوقف فشمل وقف مكتبات بأكملها، ووقف الكتب على المدارس والمساجد والمشافى والمراصد والروابط والخانقاهات، كما كان هناك نوع من الوقف يتمثل فى وقف كتب عالم بعد وفاته على أهل العلم أو

ورثته، واهتم واقفوا المكتبات المستقلة أو تلك التى تكون فى مدارس أو مساجد بتوفير دخل مادى ثابت لها لصيانتها وترميمها، وتحمل التكاليف المادية للعاملين فيها، وعين بعضهم ريعا يساعد على نماء المجموعة وازدهارها عبر السنين"(١٣٩).

من هذا النص نستطيع أن نستنتج ما يلى:

١ ـ أن الوقف لم يقتصر على كتب بعينها بل شمل مكتبات بأكملها.

٢ ـ أن الوقف لم يقتصر على المعاهد التعليمية بل شمل كل مؤسسات الخدمات الأخرى.

٣ ـ أن الوقف لم يكن فقط أثناء حياة الواقف بل بعد الوفاة أيضاً.

٤ ـ كان هناك موارد مالية ثابتة للصرف منها على مرتبات العاملين فى الوقف وأوجه الصرف الأخرى كالصيانة والترميم، علاوة على إنماء المجموعات المكتبية عن طريق الشراء.

وانتشرت خزائن الوقف حتى بلغ من انتشارها وتوافرها فى الأندلس "أن أبا حيان النحوى كان يعيب على مشترى الكتب ويقول الله يرزقك عقلا تعيش به، أنا أى كتاب أردته استعرته من خزائن الأوقاف"(١٤٠).

٤ ـ الهبات والهدايا:

حرص أصحاب المكتبات فى الأندلس على اقتناء أكبر عدد ممكن من الكتب المخطوطة بخطوط مؤلفيها، فكانوا يستهدونها من المؤلفين، أو يرسل المؤلفون لهم هذه الكتب على سبيل الهدايا أو الاستجداء الأدبى وخاصة إذا وقعت من الشخص المهداة إليه موقعا حسناً، وقد شاع فى الأندلس أن خير وسيلة للحصول على عمل أو نيل حظوة هى تقديم كتب للمسئولين لا توجد عندهم، وهكذا كانوا يهدون إليهم أعمالهم أو يقدمون إليهم نسخاً من مؤلفات

أخرى نادرة، لدرجة أن أسقفا من الأساقفة المسيحين فى قرطبة أهدى إلى الحكم الثانى تقويماً للأعياد المسيحية الأسبانية، وهو كتاب ظريف حقاً قدر له أن يصل إلينا لحسن الحظ(١٤١).

وكان بعض العلماء يعطون الكتب لمن يطلبها ـ على سبيل الهبة ـ حتى ولو كان المطلوب مخطوطا أصليا نادراً تعد ملكيته شرفاً لمقتنيه، وهذا ما فعله عالم النبات المشهور "ابن الرومية" الذى ذاع صيته فى "شاطبة" فى جمع الكتب فى مختلف العلوم، وقد ساعده على ذلك غناه الفاحش وكرمه الزائد، فكان يعطى الكتب لمن يطلبها وذلك استجابة لرغبته فى أن يتعلم الآخرون(١٤٢).

فضلا عن ذلك كانت تأتى كتب أجنبية من البلدان الأخرى هدية إلى الحكام المسلمين، وقد مر من ذى قبل أن أرسل أرمانيوس امبراطور الروم هدية إلى الخليفة الناصر لدين الله الأندلسى، وكانت عبارة عن كتابين هما: كتاب الحشائش المصورة لديسقوريدس والآخر كتاب هرموسيوس صاحب القصص(١٤٣).

وكانت الكتب التى تبعث بها الدول الأجنبية كهدايا إلى حكام الأندلس تحفا فنية جميلة ذات زخرفة رائعة، ودائما تكتب بحروف من ذهب، من أجل اظهار عظمة هذه الدول ورقيها الحضارى، فيذكر المقرى فى " نفح طيبه " أنه ورد على الخليفة عبد الرحمن الناصر بقرطبة كتاب من صاحب القسطنطينية، وكان فى ورق مصبوغ لوناً سماوياً مكتوباً بالذهب بالخط الاغريقى، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة (مكتوب بفضة بخط اغريقى أيضا) وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل على الوجه الواحد صورة المسيح عليه السلام وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده، وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة

قسطنطين الملك معمولة على الزجاج البديع وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج(١٤٤).

٥ ـ المصادرة:

وتمثل المصادرة أحد المصادر غير الثابتة لاغناء خزانة من خزائن الكتب على حساب الكتب المصادرة، ففى بعض الأحيان دفع حرص البعض من أهل الأندلس إلى الحصول على الكتب التى يريدونها إلى استخدام العنف أو الالتجاء إلى النهب والمصادرة، كما فعل الأفارقة المتعصبون "فى المكتبة العلمية لأبى الحجاج المورينى من اهل اشبيلية"(١٤٥). وهذا المصدر الأخير (المصادرة) يعتبر طريقة استثنائية، وليست قاعدة عامة فى إغناء المكتبات الأندلسية وتزويدها بالكتب، ولم يكن غالباً أو يمثل الصورة الشائعة فى هذا المجال، وانما كانت القاعدة الرئيسية فى بناء وتنمية مقتنيات المكتبات فى الأندلس تتبلور فى المصادر الأربعة الأولى وهى: الشراء ـ النسخ ـ الوقف ـ والهدايا.

٣/٤/٣ الجوانب الأساسية فى إدارة المكتبة:

وتشمل هذه الجوانب العناصر التالية:

١ـ المقر والأثاث:

لم يمكن للمكتبات أبنية مستقلة خاصة بها فى بادئ الأمر، بل كانت المكتبة جزءاً غير مستقل من مبنى المؤسسة التى تنشأ فى كنفها، فمكتبات المساجد كان يخصص لها مكان معلوم فى المسجد، عبارة عن رف كبير أو أكثر داخل أحد جدران المسجد بحيث يكون ظاهراً للعيان، كذلك كان يخصص للمكتبات حجرة من حجرات المدرسة، تكون معلومة للطلاب والمدرسين، والحال كذلك فى بقية المكتبات، أما المكتبات الخاصة التى

ينشئها الأفراد فى منازلهم، فكانوا يخصصون لها مكانا أو غرفة من غرف المنزل بعيدة عن عبث الأطفال، كما هو متبع ـ أحياناً ـ فى أيامنا هذه.

وكانت مكتبة الحكم تشغل إحدى أجنحة قصر الخلافة بقرطبة وكان هذا الجناح هو ما يعرف فى التاريخ باسم مكتبة الحكم أو مكتبة قرطبة الأموية، ومع ان المصادر التى بين أيدينا لا تمدنا بمعلومات وافية عن مبنى المكتبة ولا تسعفنا ـ حتى ـ فى وصف هذا المبنى إلا أنه من المرجح أن "مبناها قد لقى عناية فائقة من الناصر الذى عنى بقرطبة عناية فائقة حتى قيل أنه لم يبق بنية إلا وله فيها أثر محدث اما بتجديد أو بتزييد"(١٤٦). وحسبك ببناء يتسع لمجموعة من الكتب يبلغ عددها أربعمائة ألف كتاب كما تذكر جل المصادر، وأغلب الظن أن عدد غرفة المكتبة كان كثيراً بحيث يتسع ـ إلى حد ما ـ استيعاب هذه المجموعات.

بيد أن هذه الغرف ضاقت بما تحتويه المكتبة من الكتب، علاوة على عدم استيعابها للزيادة المطردة من الكتب، "ولهذا كان من الضرورى أن تنقل المكتبة فى مكان آخر، وقد استغرقت عملية النقل هذه ستة أشهر كاملة، عمل خلالها عدد كبير من الأشخاص بجد واجتهاد"(١٤٧).

وكانت المكتبات فى هذا الزمن البعيد تزود بالأثاث المناسب الذى يساعد على عمليتى الاطلاع والبحث، ويعمل على توفير الراحة للرواد، من أمثلة هذا الأثاث البسط والسجاجيد والستائر السميكة، التى تقى من برد الشتاء القارص أو حر الصيف اللافح، كذلك زودت المكتبات بالأرفف اللازمة لتسكين الكتب، وكان أغلب هذه الأرفف من النوع المفتوح Open shelves لاتاحة الوصول مباشرة للكتب، كما كان هناك بعض الأرفف المغلقة Closed shelves التى تحفظ فيها الكتب القيمة والثمينة لحمايتها من العبث أو السرقة.

٢ ـ الأقسام الرئيسية للمكتبة:

كانت المكتبات فى الأندلس ـ وخاصة الكبرى منها ـ تضم مجموعة من الأقسام التى تساعد على تيسير وتسيير دولاب العمل فيها، كما تعمل على تحقيق الأهداف المرجوة منها.

وبالرغم من التفاوت البين الموجود بين المكتبات فى عدد أقسامها، إلا أنها كانت تشترك فى توفير مجموعة من الأقسام كحد أدنى، فكان هناك قسم مسئول عن الاطلاع والخدمة المكتبية، وآخر تنصب مسئوليته على الكتب من حيث إعدادها فنياً وتسكينها على الرفوف، وثالث للعمليات المتعلقة بانتاج الكتب كالتأليف والترجمة والنسخ وتوابعه. ورابع خاص بتأليف وترجمة الكتب لحساب المكتبة.

وهذه الأقسام وغيرها مما يماثلها كانت توجد فى "مكتبة الحكم الثانى" بصورة أوضح، وفى ذلك يشير "المقرى" إليها باختصار فيقول "وقد جمع فى قصره (أى الحكم الثانى) الحُذاق فى صناعة النسخ والمهرة فى الضبط والاجادة فى التجليد فأوعى فى ذلك كله..."(١٤٨).

وفى الفقرات التالية عرض مبسط لأهم أقسام المكتبة بهدف التعرف على كيفية إعداد الكتب سواء من حيث الانتاج أو التنظيم.

* قسم التأليف:

لم تكن "مكتبة الحكم الثانى" مكتبة تقليدية بالمعنى الجارى فى أيامنا هذه، بل كانت مركزاً للبحث والدرس والتأليف والترجمة، لدرجة أن يحق لنا أن نطلق عليها " أكاديمية علمية " أو " مجمعا علميا " بالمعنى الشامل لهذه التسميات. ولعل قسم التأليف كان يعتبر أهم أقسام المكتبة، حيث كانت تقع على كاهله مسئولية تأليف الكتب فى مختلف المجالات لحساب المكتبة، فضلا عن تزويدها بكل ما يصدر من مؤلفات سواء على المستوى المحلى (داخل

الأندلس) أو الخارجي، لذا كان يعمل فى هذا القسم كل من يجد فى نفسه أنه أهل لذلك سواء بخبرته العلمية أو دراساته العلمية.

فمن ناحية التأليف كان يتم تكليف بعض علماء الأندلس للتأليف فى تخصصات معينة، ومن أمثلة ذلك تكليف محمد بن الحارث الخشنى لتأليف بعض الكتب للمكتبة، فقام بمهمته خير قيام وألف مجموعة ضخمة من الكتب نذكر منها: تاريخ قضاة قرطبة ـ فضائل الامام مالك ـ مناقب سحنون ـ فقهاء المالكية ـ تاريخ الافريقيين ـ الرواة عن مالك ـ التعريف ـ الاقتباس ـ الفتيا ـ الاتفاق والاختلاف فى مذهب مالك، وغيرها كثير ليس هنا مجال تجريده، وكانت هذه المؤلفات بايعاز من الخليفة الناصر ومن بعده ابنه الحكم لتدعيم المذهب المالكى، مذهب أهل السنة والجماعة فى الأندلس، من أجل الوقوف أمام دعاة المذهب الاسماعيلى الذى حاول الفاطميون فى الشمال الافريقى تسريبه إلى الأندلس[١٤٩].

ومن ناحية تزويد المكتبة بالمؤلفات الصادرة خارج الأندلس، كان القسم يراسل مندوبيه ـ أو كما نسميهم الموردين بمصطلحات العصر ـ ليوافوه بكل ما هو جديد، أو يراسل المؤلفين أنفسهم وخاصة فى المشرق الإسلامى وذلك عن طريق بعض الرسل المبعوثين على نفقة الدولة، ومن أهم الكتب الواردة عن هذا الطريق كتاب "الأغانى" لأبى الفرج الأصفهانى.

فضلاً عن هاتين الناحيتين كانت مهمة مراسلة كبار الأساتذة خارج الأندلس تقع على عاتق القسم، لا بهدف الحصول على مؤلفاتهم، بل لاحضارهم شخصياً إلى الأندلس، بما يشبه عملية التعاقد فى أيامنا هذه، وهذا ما تم مع أبى على القالى صاحب كتاب الأمالى.

* قسم الترجمة:

تعتبر الترجمة نوعاً من التأليف المشترك ـ إلى حد ما ــ إذا صدقت النية وصح العزم، كما كانت مصدرا مهما من مصادر تزويد المكتبة بالمصنفات فى الحضارات الأجنبية والفكر العالمى، ومن ثّم اهتم القسم بترجمة أمهات الكتب من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية، لذا عمل فى هذا القسم نخبة ممتازة من المترجمين الذين يجيدون اللغات الأجنبية خاصة اليونانية واللاتينية، نذكر منهم "عبد الله الصقلى ومحمد النباتى وأبا عثمان الجزار الملقب باليابسة، ومحمد بن سعيد و عبد الرحمن بن اسحق بن الهيثم، وحسواى بن شبروط"[١٥٠] وغيرهم كثير. وعملت هذه المجموعة على نقل أهم المصنفات اليونانية الى اللغة العربية وخاصة فى المجالات العلمية كالطب والهندسة والفلك.

* قسم التدقيق والمراجعة:

تتبلور مسئولية القسم فى مراجعة الكتب وتصحيحها وتهذيبها سواء المؤلفة أو المترجمة، حتى تصبح خيالية من نقص علمى أو عيب مادى، لذا كان يعمل فيه نخبة من العلماء المعروفين والمشهود لهم بغزارة علمهم وتميزهم فى كل تخصص، ومن خيرة العلماء الذين عملوا فى القسم نذكر منهم "الرياض محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدى النحوى، وأبو محمد بن أبى الحسين الفهرى القرطبى، ومحمد بن معمر الجيانى"[١٥١].

* قسم النسخ:

والنسخ وكل ما يتعلق به ـ كما ألمحنا سلفاً ـ كان بمثابة النشر وكل ما يرتبط به فى أيامنا هذه. وكان النسخ المصدر الوحيد لانتاج الكتب فى عصر عزت فيه الطباعة، لذا اعتمدت كل المكتبات ـ فى هذا الزمن البعيد ـ

فى بناء وتنمية مجموعاتها على ما تقذف به حركة النسخ فى أسواق الوراقين من مؤلفات فى مختلف المجالات.

وساعد ظهور الورق وانتشاره فى تأليف الكتب وتسهيل تداولها حيث اشتهرت "الأندلس خاصة بصنع الورق، وكان مركزه مدينة شاطبة التى كانت تصدره إلى أوروبا، وأول مصنع للورق أسس فى الأندلس سنة ٩٥٠م"[١٥٢]. والحاق قسم النسخ بالمكتبات الإسلامية لتزويدها بالمؤلفات أولا بأول، يعتبر من أرقى النظم التى وصلت إليها المكتبات فى العصر الحديث، حيث الحقت بالمكتبات الحديثة ـ وخاصة الكبرى منها ـ مطبعة تتولى نشر الكتب التى تقوم بتحقيقها لجان عملية متخصصة، كما كان شأن دار الكتب المصرية فى عصرها الذهبى.

وعمل فى "مكتبة الحكم" بقسم النسخ عدد كبير من النساخين المهرة الذين يجيدون فن النسخ ويمتازون بجودة الخط فضلاً عن أمانة النقل، ومن المراجعين المتخصصين كل فى مجال تخصصه لمراجعة ما يتم نسخه، ومن المجلدين المهرة الذين يجيدون فن التجليد والزخرفة التزيين.

*** قسم العمليات الفنية:**

ويقوم هذا القسم بعملية الإعداد الفنى للكتب من حيث فهرستها وتصنيفها من أجل تيسير تداولها وتسهيل تناولها من جانب مجتمع المستفيدين، وسيأتى الحديث عن هذه العمليات الفنية بشئ من بسط القول فيما بعد.

٣ ـ الهيكل الوظيفى:

يقصد به فئات العاملين وتدرجهم فى السلم الوظيفى وتسكينهم فى أقسام المكتبة كل حسب وظيفته، حيث كان يعمل فى هذه الأقسام مجموعة من الفئات، يمكن بلورتها على النحو التالى:

- فئة مؤلفى الكتب وتشمل العلماء المتخصصون فى مختلف فروع المعرفة، والمترجمين.
- فئة منتجى الكتب وتشمل النساخين ومن فى حكمهم كالمراجعين والمجلدين والمزخرفين.
- فئة المتخصصين فى شئون المكتبات كالقائمين بالأعمال الفنية والخدمات المكتبية.

هذا بالإضافة إلى فئة العمال والسعاة الذين يقومون بعمليات الأمن والحراسة وتنظيم الفراش وأثاث المكتبة.

وكان يعمل الأفراد فى كل فئة تحت اشراف مسئول يتولى شئون العمل من حيث توزيعه عليهم وتجهيز مستلزماته، كالورق والأقلام والأحبار.

وكان يشرف على هؤلاء الأفراد جميعهم من الناحية العلمية والإدارية " خازن " وكانت وظيفته تماثل وظيفة رئيس المكتبة أو مدير المكتبة فى عصرنا الحالى، وكانت من الوظائف الكبرى فى القصر، وتحددت مسئولية الخازن فى رسم السياسة العامة للمكتبة والتخطيط لتزويدها بالمؤلفات الجديدة، مع الاشراف المباشر على حركة العمل بالمكتبة، والايعاز بإعداد الفهارس والتأكد من دقتها وحسن تنظيم الكتب على الرفوف وحفظ السجلات، فضلا عن العمل على تقديم الخدمة المكتبية بأفضل الطرق لرواد المكتبة وتيسير الاطلاع لهم، ورفع مستوى أداء العاملين فى المكتبة.

لذا كان يتولى وظيفة الخازن أحد أساطين العلماء أو أحد مشاهير الأدباء، بحيث يسمح عمله وتتيح ثقافته وخبرته القيام بهذه المسئوليات الجسام على أحسن صورة ممكنة، ولم تكن وظيفة الخازن عملاً إدارياً فحسب وانما هى عمل علمى بالدرجة الأولى، حيث كان بحكم وظيفته يتلقى

الكتب الحديثة ويقرأ ما يشاء منها او حتى يلقى عليها نظرة فاحصة تعينه على الاحاطة بموضوعاتها ومضامينها، ومن ثم يستطيع أن يوجه أنظار المهتمين بموضوع ما إلى الكتب والدراسات والأبحاث التى تعالج هذا الموضوع.

ومن الملاحظ أن جل المصادر ـ إن لم تكن كلها ـ التى تناولت مكتبة الحكم الثانى بالذكر قد أغفلت الحديث عن العاملين فى المكتبة وعن رجالها الذين كانوا يقومون بالخدمة المكتبية فيها، يستثنى من ذلك " ابن حزم " الذى أشار إلى اسم واحد من هؤلاء العاملين هو " تليد الفتى" الذى شغل منصب الخازن (مدير المكتبة)[١٥٣]. ومن منطق الأمور، وفى مكتبة على هذا القدر من الضخامة، لا تكتفى بواحد فى إدارتها ومن ثم كان هناك أكثر من واحد لإدارتها ـ إلى جانب تليد ـ من المتخصصين فى شئون المكتبات، وفى هذا يشير البعض إلى اسم خازن آخر و "كانت المكتبة فى القصر بقرطبة تحت إدارة قيمّ خصىّ يدعى بقية"[١٥٤].

وكانت "المكتبات الإسلامية الضخمة أو كثيرة الرواد لا تكتفى بتعيين خازن واحد، بل كانت تعين اثنان، أو يعين للخازن مساعدا أو أكثر ليتعاونوا جميعاً فى خدمة القراء وتيسير الاطلاع لهم"[١٥٥].

وهذا النظام معمول به فى المكتبات الكبرى فى عصرنا الحالى، وخاصة فى المكتبات الجامعية والوطنية، حيث يساعد مدير المكتبة اثنان من النواب أو أكثر، أحدهما لشئون العمليات الفنية، والآخر يتولى شئون الخدمات المكتبية لمجتمع المفسدين، والثالث ـ فى بعض المكتبات ـ يتولى الشئون الإدارية والمالية.

٤ ـ التمويل والموارد المالية للمكتبة:

تضن علينا المصادر على أنواعها بالمعلومات المتصلة بالنواحى المالية للمكتبات فى الأندلس عامة ومكتبة الحكم الثانى خاصة، وأغلب الظن أن عمليات تمويل هذه المكتبات كانت من الأمور العادية التى يتبارى القوم بالصرف على المكتبات وشئونها بسخاء دون حساب، الأمر الذى لم يجعل وضع هذا الجانب فى حسبانهم أو حساباتهم، فاقتصاد الدولة الأندلسية كان قوياً، وميزانيتها كانت ضخمة (بلغت أكثر من ١٢ مليون دينار من الذهب) كما ألمحنا من قبل،فضلا عن اهتمام القوم وشغفهم (حكاماً ومحكومين) بالكتب واقتنائها وبالمكتبات وإنشائها.

وهذه مؤشرات ذات دلالة قوية على كثرة ما ينفق على الكتب والمكتبات سواء من حيث شراء المجموعات، أو من حيث صرف أجور العاملين فى هذه المكتبات أو حتى النثريات كالصيانة والمستلزمات الورقية والمكتبية والأدوات الكتابية.

وما كان ينفق من قبل الأفراد أو ما تخصصه الدولة للصرف على هذه المكتبات يعتبر مصادر التمويل الثابتة التى تعتمد عليها المكتبات. ويجب أن لا يغيب عن البال أن ثمة ظاهرة كانت منتشرة وجارية فى الدول الإسلامية فى أزهى عصورها سواء فى الأندلس أو غيره من الأصقاع الإسلامية الأخرى، ألا وهى " الأوقاف " وكانت تسمى "الأحباس"، ويمثل الوقف على أنواعه مصدراً طيباً وموردا لا ينضب لتغطية نفقات المكتبات، فلم يكن الوقف قاصراً على وقف كتب أو مكتبات بعينها، بل كان يمتد ليشمل وقف ريع يساعد على تنمية مجموعات هذه المكتبات وصيانتها أو صرف مرتبات العاملين فيها، من أجل ضمان سيرورة العمل بها.

وقد تبلور العمل بنظام الأوقاف كنتيجة طبيعية للنهضة التعليمية والثقافية والاجتماعية التى شهدتها الأندلس.

وثمة مصدر ثالث لم يكن ثابتا كسلفيه السابقين، وهو الهبات والاعانات، فكان أهل الخير المحبين للعلم وأهله ووسائله (الكتب والمكتبات) يجودون بأموالهم ــ على شكل هبات أو اعانات ــ تشجيعاً وعوناً لهذه المؤسسات التعليمية والخدمية ذات النفع العام لاستمراريتها فى أداء وظيفتها.

٣/٤/٤ التنظيم الفنى لمجموعات المكتبة:

فى محاولة لتلمس آليات العمل الفنى، من خلال تفحص واستنباط ما يعن عن مختلف المصادر، يمكن القول أن المكتبات فى الأندلس كانت تتبع نظماً معينة فى فهرسة مجموعاتها وتصنيفها، وان اختلفت هذه النظم بين التبسيط غير المخُل والتوسع المفيد غير المضر.

فمكتبة الحكم الثانى وهى على هذه الدرجة من الضخامة العددية والقوة الموضوعية، لابد أنها كانت تتبع نظاماً معيناً يجعل الاستفادة من كنوزها أمرا ميسورا، وعماد هذا النظام هو الفهارس وخاصة الفهارس الموضوعية التى يعمد إليها المستفيد لمعرفة المصنفات فى مجال بحثه أو تخصصه، باعتبار الفهرس مفتاح المكتبة للتعرف والوصول إلى ما بها من أوعية المعلومات.

وقد أجمعت مختلف المصادر ــ قديمها وحديثها ــ على أن فهارس المكتبة التى فيها تسمية الكتب وأسماء المؤلفين بلغ عددها أربعة وأربعين فهرساً، وفى كل فهرس عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير[١٥٦].

ويفهم من النصوص الواردة بالمصادر التاريخية التى أشارت إلى فهارس المكتبة، أن هذه الفهارس كانت مرتبة ترتيباً موضوعياً، أى كان لكل موضوع فهارسه الخاصة به.

وإذا كانت فهارس دواوين الشعر تبلغ (٤٤) فهرساً، فكيف كان عدد فهارس الموضوعات الأخرى؟ أغلب الظن أن عدد فهارس كل موضوع كان يدور حول هذا الرقم أو نحو ذلك، ان لم يكن يزيد عنه.

وكانت البيانات المسجلة فى الفهارس الموضوعية تشتمل على أهم عنصرين من عناصر الفهرسة الوصفية، ألا وهما: عناوين الكتب وأسماء المؤلفين، وهما يكفيان لتحقيق ذاتية الكتاب من حيث تحديد ومعرفة عنوانه، ونسبته إلى مؤلفه.

بلغ عدد أوراق كل فهرس عشرون ورقة كما ذكرت جل المصادر ما عدا مصدر واحد ذكر أن عددها فى كل فهرس خمسون ورقة[١٥٧].ومن المفهوم أنه لا مغالاة فى هذا التقدير خصوصاً إذا ما تذكرنا أن المكتبة تضم ثلاث مكتبات معاً، وأن عدد مجموعاتها بلغ (٤٠٠ألف) مجلد.

وإذا انتقلنا إلى التصنيف وهو صنو الفهرسة الموضوعية ــ للتعرف على طبيعة النظام المستخدم فى مكتبة الحكم خاصة والمكتبات الأندلسية الأخرى عامة، فانه يشتم من خلال النص السابق بشأن الفهارس، أن المكتبة كانت تتبع نظام تصنيف معين فى ترتيب مجموعات الكتب، وأن هذا النظام كان قائماً ومبنياً على أساس موضوعى، وهذا الأساس يسمى ـ فى عصرنا الحاضر ـ بنظام التصنيف المنطقى أو الطبيعى.

ولا مغلاة فى القول بأن مكتبات الدولة الإسلامية فى أزهى عصورها كانت تستخدم خطة تصنيف موضوعية تعكس الثقافة العربية والإسلامية السائدة من خلال الموضوعات المطروقة آنذاك، وليس أدل على ذلك من

خطة ترتيب "الفهرست" لابن النديم، وهى خطة وضعت فى إطار موضوعات الكتب الوجودة حينئذ، "ولذلك فمن المعتقد أن فهرست ابن النديم صورة واضحة لنظام التصنيف المطبق فى مكتبات ذلك الوقت، ووفقا لهذا الاعتقاد فإن المكتبات أو مجموعات الكتب فى ذلك العصر كانت مقسمة إلى عشرة أقسام هى التى أسماها ابن النديم فى الفهرست مقالات، وهذه الأقسام الرئيسية مقسمة طبقاً لحاجات كل مكتبة"(١٥٨).

والأقسام العشرة ـ كما جاءت فى فهرست ابن النديم ـ هى:

القرآن - النحو - التاريخ - الشعر - العقائد - الفقه ـ الفلسفة ـ السمر ـ الأديان - علم الصنعة.

وهذه الموضوعات (الأقسام العشرة) تعبيراً عن اعتراف ضمنى بوجود نظام تصنيف كان مطبقاً فى تنظيم الكتب والمكتبات وخاصة المكتبات الكبرى كمكتبة الحكم الثانى.

ولا مغالاة فى القول ـ أيضاً بأن ملفيل ديوى صاحب التصنيف العشرى، قد استفاد أيما استفادة فى عملية تقسيم تصنيفه إلى عشريات من من طريقة ابن النديم، وهو أمر قائم وغير مستبعد ما لم توجد دلائل تنفيه أو تثبت عكس ذلك.

٥/٣ بعض القضايا المتعلقة بالمكتبات فى الأندلس

ثمة مجموعة من القضايا التى ارتبطت بالمكتبات فى الأندلس، أثرت فيها بصورة أو بأخرى سواء ايجابا أو سلبا، نسجل أهمها باختصار فيما يلى:

٣/٥/١ أهداف المكتبات وأغراضها:

تكاد تكـون أهداف المكتبـات وأغراضهـا واحـدة وان اختلـف الزمـان وتباين المكان، بيـد أن نوعيـة المكتبـة ذاتهـا تزيـد هدفـاً هنـا أو تنقـص هدفـاً هناك، ومن أهداف المكتبـات الإسـلامية فـى الأندلـس والتـى تعتـبر كـاهداف مشتركة فيما بينها نجد ما يلى:

*** أهداف تربوية وتعليمية:**

كـانت المكتبـات ولا تـزال مركـزا للتربيـة والتعليـم، وخاصـة فـى المؤسسات التعليمية كالمدارس والجامعات، حيث تبلـور دورهـا فـى مسـاندة وتدعيم المناهج الدراسية فى هذه المؤسسـات، وعملـت علـى تعميـق وتحقيـق الأهداف التعليمية والتربوية التـى خطتهـا لنفسـها هـذه المؤسسـات التعليميـة، لدرجة أن أصبح يقاس مدى جودة المكتبات بمدى فعاليتها فى تحقيق أغراض العملية التعليمية.

*** أهداف دينية:**

نشأت المكتبات الإسلامية مع نشأة المساجد، ومن ثـم دارت فـى فلكهـا وعملت على تحقيق أهدافها الدينية، المتمثلة فى تكوين الشخصية الإسـلامية، وتعليم النـاس أمـور دينهم وتثقيفهم ثقافـة دينيـة، وبنـاء المجتمـع الإسـلامى الفاضل القائم علـى الأخـلاق والتقـوى والصـلاح والعلـم، وهـذا أمـر طبيعـى طالمـا أن الإسـلام يدعـو إلـى العلـم ويقـدر قيمـة العلمـاء، ومـن هنـا عملـت المكتبات الإسلامية على تحقيق هذا الجانب بصـورة ناضجـة بمـا قدمتـه مـن مصـادر معلومـات فـى مختلـف المجـالات المعرفيـة، وخاصـة العلـوم الدينيـة والشـرعية التـى كـانت وراء بنـاء الفـرد وتكوينـه وتشـكيله وفـق الشـريعة الإسلامية الغراء.

*** أهداف علمية:**

لم يقتصر دور المكتبات الإسلامية على تعليم الأمور الدينية فحسب، بل كانت إلى جانب هذا مركزا من مراكز البحث والدرس فكان يقصدها كبار العلماء والباحثين لعقد الندوات والمناظرات العلمية، أو إعداد البحوث والدراسات والعمل على نشرها بين أكبر قاعدة من المستفيدين، هذا فضلا عن اتصالاتها العلمية بمراكز البحوث، ونظيراتها من المكتبات الأخرى.

*** أهداف حضارية"**

ويقصد بها النقلة الحضارية للمجتمع الإسلامى من حالة البداوة إلى حالة التحضر، ويتمثل دور المكتبة فى النقلة الحضارية فى بث العلم ونشر المعرفة وارساء دعائم النهضة العلمية والسياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية وغيرها من دعائم نهضة المجتمع وتطوره، ويجب أن لا يغيب عن البال أن النهضة الحضارية للمجتمع الإسلامى لم تنصب فقط على العلوم الانسانية والاجتماعية والأدبية، بل شملت أيضاً العلوم البحتة والتطبيقية كالصناعات والهندسة والرياضيات والفلك والكيمياء والطب والصيدلة وعلوم الفلاحة (الزراعة)، فضلا عن أن دور المكتبة الحضارى كان يقتضى مؤازرة حركة البحوث العلمية إعداداً ونشرا وتبادلا مع المكتبات والمراكز الحضارية الأخرى.

*** أهداف اجتماعية:**

كانت المكتبات الإسلامية منتدى اجتماعيا، يجتمع فيه الناس يمارسون فيه حياة اجتماعية على مستوى عالٍ من الرقى، حتى غدت المكتبات بحق منتدى المتأدبين والعلماء ومجمع الغائبين والقادمين ومحور المتفقهين ومقصد الدعاة والمصلحين، فضلاً عن كونها جزءاً من النظام الاتصالى لمجتمع المستفيدين.

*** أهداف معرفية وتثقيفية:**

حيث كان من بين أغراض المكتبات الإسلامية الاطلاع والقراءة الحرة للتثقيف والترفيه واكتساب المعلومات المفيدة وتزجيه وقت الفراغ فيما يعود على القراء بالنفع ونشر المعرفة وتعميم العلوم النافعة، فضلا عن تنمية ميول الأفراد نحو القراءة وتكوين وغرس العادات القرائية الجديدة لديهم.

٢/٥/٣ حجم المقتنيات وأنواعها:

لا تسعفنا المصادر المتاحة بين أيدينا بالتعرف على حجم مقتنيات المكتبات الإسلامية فى الأندلس، أو حتى معرفة أنواع هذه المقتنيات من حيث الشكل أو من حيث المضمون للتعرف على قوة وضعف هذه المجموعات، ومع ذلك فجل النصوص المتوفرة تشير بصورة غير مباشرة إلى أن المقتنيات فى المكتبات لم تكن قليلة بحال من الأحوال، بل كانت على العكس ضخمة من حيث الحجم ومتنوعة من حيث المحتوى، وكان وراء هذه الزيادات المطردة حب وشغف الأندلسيين بجمع الكتب كما سبق القول.

وكانت مكتبة الحكم الثانى ـ باعتبارها النموذج المحتذى للمكتبات فى الأندلس ـ تجمع بين جنباتها عددا ضخماً من المجلدات، اختلفت المصادر فى تقديره، وإذا أردنا أن نكون أكثر دقة فى تحديد هذه رقميا، نجد أن لغة الأرقام ـ والرقم مخ العلم كما يقال ـ تحدثنا عن محتويات هذه المكتبة العريقة وتقول "أنها كانت أربعمائة ألف مجلد"(١٥٩) بل وصل بها أحدهم إلى أكثر من ذلك فقال "وكان فى مكتبة الخليفة الحكم الثانى بقرطبة ستمائة ألف كتاب"(١٦٠).

وعلى الرغم من هذا الاختلاف الواضح بين هذين الرقمين فى تحديد أعداد الكتب التى ضمتها مكتبة الحكم، فاننا نستنتج من ذلك حقيقة ثابتة هى

أن هذه المكتبة كانت من الضخامة والاتساع بحيث تستطيع منافسة كبريات المكتبات فى عصرنا الحاضر.

وثمة مؤشر آخر يدلنا على ضخامة المكتبة، ألا وهو الوقت الذى استغرقته فى نقلها إلى المبنى الجديد عندما ضاق مبناها الأول بمجموعاتها، حيث استغرقت عملية النقل هذه ستة أشهر(١٦١).

كما تجدر الاشارة هنا إلى أن أحجام الكتب المقتناة فى المكتبة ـ وكذلك الحال فى بقية المكتبات الأندلسية ـ كانت متفاوتة، فبعضها لا يزيد عن أوراق قلائل، بينما كانت أوراق بعضها الآخر يزيد عن الألف ورقة.

وقد أورد بعض المصادر أن الحكم الثانى أطلع على هذه الأربعمائة ألف مجلد "وقلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله منه قراءة أو نظر فى أى فن ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته، ويأتى بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد الا عنده لعنايته بهذا الشأن"(١٦٢).

وهذا قول يبدو مبالغاً فيه إلى حد ما، فقراءته لكل هذه الكتب الأربعمائة ألف وتعليقه على جلها إن لم تكن كلها موضع شك، ومع ذلك فان عنايته بالمكتبة من حيث الشكل والمضمون شئ ثابت.

وعلى الرغم من عدم وجود اشارات مرجعية كافية فى المصادر التاريخية نبين العلاقة أو الأهمية النسبية لموضوعات الكتب المقتناه فى المكتبات، على الرغم من ذلك يمكن القول أن موضوعات العلوم التى كانت سائدة فى ذلك الوقت، تدور حول العلوم النقلية كالدين الإسلامى وعلومه، والعلوم العقلية كالفلسفة والمنطق والرياضيات والهندسة والفلك والطب والصيدلة والكيمياء وما شابه.

ولم تكن مكتبة الحكم هىالوحيدة فى الأندلس التى تضم مجموعات ضخمة من المواد المكتبية، وانما كانت هناك مكتبات أخرى كثيرة بها

مجموعات كثيرة من الكتب، ويضيق المكان هنا لتفريدها والحديث عنها تفصيلا، لذا سنكتفى بالاشارة إلى واحدة منها يمتلكها أحد الرعايا المسلمين، ألا وهى مكتبة ابن فطيس، الذى شيد مبنى خاصا لمكتبته على أحدث التصميمات، بحيث يسمح برؤية جميع الكتب من مكان واحد، وهذا النظام أخذت به معظم المكتبات ـ وخاصة المكتبات الكبرى ـ فى الدول الأوربية. وللدلالة على ضخامة مقتنيات المكتبة يتبين ذلك من المدة التى استغرقتها فى بيع مجموعاتها ومقدار ثمن هذه المجموعات، "حيث اجتمع أهل قرطبة لبيع كتبها لمدة عام كامل فى مسجده، وأنه اجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار قاسمية"(١٦٣).

٣/٥/٣ الخدمات المكتبية وآدابها:

كانت الخدمات المكتبية التى تقدمها المكتبات الأندلسية تدور حول الخدمات التقليدية المعروفة لدينا فى أيامنا هذه ـ ان لم تكن تفوقها ـ سواء أكانت خدمات مباشرة أو غير مباشر، كالاطلاع الداخلى والارشاد المرجعى والتوجيه القرائى والاستعارة الخارجية... الخ، فضلا عن تسهيل مهمة الباحث وتذليل متطلبات البحث له، من توفير الكتب المطلوبة، والأوراق والأقلام والأحبار بالمجان.

وكان ارتياد المكتبات للقراءة والبحث مباحا وميسرا دون أية اجراءات روتينية تحول بين القارئ ومصادره.

وكانت الاستعارة الخارجية تتأرجح بين الاباحة والمنع، وذلك باختلاف الظروف كندرة الكتاب أو وفرة النسخ، فضلا عن سمعة المستعير ومكانته الاجتماعية والعلمية، فمن المكتبات من قيدها برهن حرصا أو خوفا منها على الكتب من الضياع، ومنها من سمح بها دون مقابل أو قيد أو شرط،

باعتبار أن عائد الفائدة العلمية على القارئ لا يقدر بمال، ومنها من منعا باتا.

ومع ذلك يبدو أن القاعدة العامة كانت السماح باعارة الكتب خارجياً للأفراد الموثوقين فيهم من العلماء وعلية القوم.

ولم تقتصر اعارة الكتب من قبل المكتبات على الأفراد بل امتدت لتشمل اعارة الكتب بين هذه المكتبات بعضها والبعض الآخر، وهذا ما نطلق عليه "الاعارة الداخلية بين المكتبات Inter-Library Lending أو Interlibrary Loan.

ومن الأمور الطريفة فى هذا المجال، كانت توجد اعارة بين العلماء أو الأدباء بعضهم والبعض الآخر، فقد "جرت العادة أن يستعير الأدباء بعضهم من بعض كثيراً من الكتب، وقد كان بعضهم ضنينياً بكتبه ولا سيما الأصول منها، ولا يعيرها البتة كالقاضى أبى المطرف الأندلسى ... وكان إذا ألحق عليه انسان فى طلب الاعارة ينسخ له الكتاب المطلوب ويعطيه النسخة المنسوخة لا الأصل، فى حين وجد آخرون كانوا كرماء وأسخياء فى اعارة الكتب ولا سيما لطلاب العلم"[١٦٤].

من هذا النص نستنتج ما يلى:

١ - أن الاعارة بين الأدباء كانت قاعدة أو عرف جارى، ولما كان لكل قاعدة استثناء كما يقال، فكان هناك قلة ضنت بما لديها من الكتب على الأخرين.

٢ - أن أصول الكتب - فى الغالب الأعم - لم يكن مسموح باعارتها خارجيا، لأنها نسخة فريدة أو نسخة وحيدة Unique Copy وهذا المبدأ معمول به فى أيامنا هذه حيث لا تسمح المكتبات على أنواعها باعارة النسخة الوحيدة والابقاء عليها داخل المكتبة لاستخدام القراء.

٣ ـ كان هناك نوع من التسهيلات بشأن اعارة الكتب خارجيا لطلاب العلم، باعتبارهم فى أول السلم التعليمى ويحتاجون ـ قبل غيرهم ـ إلى الكتب للدراسة أو البحث، فضلا عن ضيق ذات أيديهم ـ فى مثل هذه الظروف ـ فهم مبتدئون فى الحياة العملية والعلمية.

وتردد على المكتبات فى الأندلس نخبة ممتازة من العلماء والأدباء وطلاب الدراسة والبحث للاطلاع واعداد البحوث والتأليف فى فنون المعرفة المختلفة مستفيدين من مقتنيات هذه المكتبات، ونذكر من هؤلاء ابا على القالى صاحب كتاب الأمالى، ومنذر بن سعيد البلوطى قاضى قرطبة، والزبيدى النحوى المشهور صاحب "أخبار النحويين" وغيرهم من الأدباء والعلماء وطلاب العلم.

وكان لاعارة الكتب سواء الداخلية أو الخارجية نظمها التى تحكمها، وآدابها التى تدل على رفعة أخلاق مجتمع المستفيدين، كما تدل ـ فى ذات الوقت ـ على مصداقية هؤلاء القوم فى البحث العلمى الجاد والاطلاع المثمر، من هذه المبادئ عدم العبث بالكتب سواء بالكشط أو المحو أو التعليق، فكان ينبغى على المستعير " المحافظة على الكتاب ولا يجوز أن يصلحه بغير اذن صاحبه ولايحَشيً ولا يكتب شيئاً فى بياض فواتحه أو خواتمه أو هواشمه إلا إذا علم رضا صاحبه ولا يعيره لغيره، ولا يدفعه ضمانا لشئ ... ولا يطيل مقام الكتاب عنده من غير حاجة، بل يرده اذا قضى حاجته، أو انتهت المدة التى أذن له بها... وهى لا تتجاوز شهرين"(١٦٥).

وهكذا تكون الأمانة العلمية بكل ما تحمله من معان، وما أحوجنا اليها فى أيامنا هذه، التى انقلبت فيها المعايير، وطغى عصر التصوير الضوئى الذى ساعد على اقتناص جهد الباحثين الجادين والعلماء المخلصين.

وغدت هذه المبادئ عند رواد المكتبات الإسلامية كالمثل السائر الذى صاغوه قالبا فى أحلى الكلام (الشعر) ونفذوه فعلا فى الواقع المكتبى، ولنذكر بعضا من هذه الأشعار.

ايها المستعير منى كتـــاباً	ارض لى فيه ما لنفسك ترضى
لا ترى ردَّ ما أعرتك نفلا	وترى ردَّ ما استعرتك فرضـــا

ويقول آخر:

ايها المستعير منى كتـــاباً	ان رددت الكتاب كان صوابـــا
انت والله ان رددت كتابـاً	كنت أُعطيتَهُ أخـــذت كتابـــا

وغيرها كثير يضيق به المكان، وكلها تشجع وتحفز على حركة تداول الكتب والمحافظة عليها.

٣/٥/٤ نهاية المكتبات ومصيرها:

بعد هذا الماضى الزاهر للحضارة الإسلامية فى الأندلس، وللمكتبات الأندلسية التى تعتبر أول دائم هذه الحضارة، ويشهد التاريخ على ذلك، فانتشرت المعارف والفنون فى البلاد، وكثر عدد المتعلمين والعلماء والفقهاء والأدباء، وسادت القيم العليا، وتضوعت الحياة بأجمل المعانى وأروع الفضائل الانسانية، وكان التقدم العلمى الجارف فى مختلف المجالات العلمية.

وبعد كل هذا، فان دوام الحال من المحال، فجاءت الأحداث بما لا يشتهى السَّفِن كما يقولون، فظهرت الفتن والصراعاتِ على الخلافة الأموية تنشب أظفارها فى مجدها الحضارى فقضت عليها وتفرق الناس شيعاً وأحزابا، وانقسمت إلى دويلات ضعيفة، وبدأ فى التاريخ ما يعرف بعصر الطوائف (٤٢٢-٤٨٤هـ)، ونهبت الكتب وبيع بعضها، ووزع بعضها الآخر، وأحرق بعضها الثالث. فماذا حدث ولماذا حدث وما نتيجة ما حدث؟!.

وفـى الفقـرات التاليـة عـرض مبسـط فـى محاولـة للاجابـة علـــى هــذه التساؤلات، مع التركيز ـ بطبيعة الحال ـ على وضعية الكتب والمكتبات وما آلت إليه.

فـى أوائـل القـرن الحـادى عشـر الميـلادى بـدأ انهيـار صـرح الخلافـة الأمويـة فـى الأندلـس نتيجـة لتضـافر عوامـل كثـيرة، حتـى سـقطت الخلافـة الأموية نهائيا سنة(٤٢٢هـ ـ ١٠٣١م) وتفككت الوحـدة السياسـية للبـلاد التـى كانت أيذانا وارهاصا فى بداية النهاية لدولة الإسلام فى الأندلس.

ويرجع المؤرخون ذلك إلى عدة أسباب نجملها فيما يلى:(١٦٦)

١ ـ أسباب متعلقة بنظام الحكم:

عندما توفى الحكم المنتصر (ت ٣٦٦هـ)، أخـر الخلفـاء العظـام، خلفـه ابنه هشام المؤيـد (٣٦٦-٣٩٩هـ) وكـان طفـلاً، فقـامت أمـه السـيدة "صبـح" بالوصايا عليـه، ومـن هنـا بـدأ حريـم القصـر التدخـل فـى الأمـور السياسـية، فاختـارت "محمـد بـن أبـى عـامر" حاجباً للدولـة والـذى تلقب فيمـا بعـد بـ "المنصـور"، وقـد نجـح ابـن أبـى عـامر فـى حجـب الخليفـة صـاحب السـلطة الشرعية عن ممارسة سلطاته، مما أدى إلى الاستهانة بمركـزه، وحجبـه عـن الشعب وأستأثر هو بالسلطة، واتجه بالبلاد اتجاها عسكريا. وخلفـه ابنـه عبد الملك (٣٩٢-٣٩٩هـ) الذى نهج منهج أبيه، ثم خلفه أخوه عبد الرحمن وكان مستهترا ماجنا، فكان سببا فى نهاية حكم العامريين وانقراض دولتهم. ثم تبـع ذلك عصر من الفوضى عانت فيه البـلاد فتنـا واضطرابـات كثـيرة، وتنـاوب على حكم البلاد سلسلة من الخلفاء المحليين الضعفـاء الذيـن يعرفـون تاريخـاً بملوك الطوائف (٤٢٢ـ ٤٨٤هـ)، واسـتبدوا فـى البـلاد حتـى أوصلوهـا إلـى حالة من التمزق والفوضى.

٢ - أسباب عسكرية:

ومنها الحروب الخارجية التى خاضها شعب الأندلس فى عهد ابن أبى عامر المنصور مع الممالك المسيحية، وكانت سلسة متصلة لم تنقطع، كانت فى كل عام غزوتين الأولى فى الربيع والثانية فى الخريف، حتى بلغت سبعا وخمسين غزوة، ولنا أن نتصور تكاليف الجيش اللازم لخوض كل هذه الغزوات، وفى هذا الصدد تجدر الاشارة إلى الحروب الداخلية فى أسبانيا المسيحية بسبب التنافس على الحكم والتنازع على العرش، ولم تتوقف هذه الحروب بين الولايات الأسبانية إلا بعد زواج الأمير "فرناندو" بن خوان الثانى ملك أراغوان بابنة عمة الأميرة "ايزابيلا" فى ١٨ أكتوبر ١٤٦٩م، وكان هذا الزواج ايذانا بتوحيد مملكتى أراغوان وقتشالة، وفعلا تمكن الملكان - أو الزوجان – الجديدان فرناندو وايزابيلا من توحيد مملكتهما سنة ١٤٧٩م، وكرسا جهودهما فيما بعد لمحاربة الممالك التى كانت فى أيدى المسلمين حتى قضوا على آخر معقل لهم وهى غرناطة، وكان ذلك سنة ١٤٩٢م، وحل الصليب على أبراج غرناطة محل الهلال.

٣ - أسباب إجتماعية:

ومنها الدور الخطير الذى لعبه البربر – الذين كانوا يكونون احدى الطوائف الحاكمة فى الأندلس – فى سقوط الخلافة فى الأندلس والقضاء على أصحاب البيوتات الأندلسية التى كانت بمثابة أركان الدولة الثابتة، واستبدوا بالشعب واستولوا على خيراته.

٤ - أسباب اقتصادية:

حيث عم البلاد خراب اقتصادى بسبب كثرة الانفاق والاسراف لدرجة أثرت على أحول البلاد الاقتصادية مع بداية القرن الخامس الهجرى.

تضافرت هذه العوامل وغيرها مما يماثلها في تقويض صرح الحضارة الإسلامية في الأندلس ومحو معالمها وكانت المكتبات بما تزخر به من الكتب أول المعالم التي أضيرت من جراء الصراعات القائمة في البلاد بين الحكام بعضهم والبعض الآخر، والحروب القائمة ــ بعد ذلك ــ بين الحكام وبين الولايات الأسبانية التي تمكنت من القضاء على الخلافة الإسلامية في الأندلس نهائيا سنة ١٤٩٢م.

وقد أصيب حركة الكتب والمكتبات في الأندلس بنكسات ومحن كثيرة، يمكن إدراجها تحت نقطتين هما:

الأولى : عمليات الاحراق:

وكانت أكثر ما أصاب الكتب والمكتبات، واتخذت هذه العمليات مناحى عدة منها:

*** احراق من أجل التقرب إلى فئات الشعب:**

حيث عمد ابن أبي عامر ــ الذي اغتصب حكم البلاد ــ إلى مكتبة الحكم الجامعة لكل العلوم، وأمر باخراج ما في جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة في المنطق والفلسفة والنجوم وغير ذلك من علوم الأوائل (يقصد بها علوم الاغريق) وأمر باحراقها، وفعل ذلك تحببا وتقربا إلى عوام الأندلس وارضاء للفقهاء وكسبا لعطفهم وتأييدهم، وتقبيحا لمذهب "الحكم" عندهم، إذ كانت تلك العلوم مهجورة عند إسلافهم مذمومة بألسنة رؤسائهم.[١٦٧]

*** احراق بسبب العقيدة الدينية:**

استمر احراق المخطوطات في أسبانيا طوال عدة قرون، لدرجة أن أصبح عيدا سنويا واحتفالا شعبيا، ويبرر خوليان المستشرق الأسباني ذلك

بقوله "يجب ألا نظن أن ذلك كان نتيجة لاحتقار العلوم، أو حقد منا على المسلمين وعلومهم، بل العكس فان ذلك كان بفضل الحماس المتزايد أو المبادئ المغالى فيها وهى ميزة خاصة فى شعبنا".(١٦٨). ويقصد هنا بالمبادئ المذاهب الدينية وانتشارها وخاصة التى تتعارض مع المعتقدات التى ترى العامة سلامتها وصحتها، وذلك لقوة تأثير الكتب كوسيلة أو أداة لنشر الأفكار، لذا قام الشعب بايعاز من الحكام إلى احراقها لمنع انتشار ما تحمله من أفكار. وهذا مؤشر صدق على القيمة الحقيقية للكتب كوسيلة اتصال مؤثر فى الرأى العام. ومن الذين تم احراق كتبهم وفقا لهذه الطريقة ـ أى بسبب معتقداتهم الدينية وحريتهم الفكرية ـ ابن مسَّرة الفيلسوف، وابن كليب الذى أدخل المذهب الفلسفى القائل بالاختيار ضد الجبرية، وابن حزم الفقيه مؤسس علم الأديان المقارن وذلك بكتابه الشهير "الملل والنحل"، وابن رشد الفيلسوف الكبير، والغزالى الذى أمر أمير المسلمين فى الأندلس باحراق كتبه، فدعى عليه الغزالى بقوله "ليذهبن عن قليل ملكه، وليقتلن ولده، وما أحسب المتولى لذلك إلا حاضرا مجلسنا".(١٦٩). فكان أن نال أمير المسلمين ما دعاه عليه الغزالى.

*** احراق بسبب التعصب وطمس الهوية الإسلامية:**

من أشهر الحرائق التى حدثت للكتب والمكتبات العربية فى الأندلس، بل كانت أكبر الأعمال التخريبية، الحريق الذى اضرم فى ميدان باب الرملة بمدينة غرناطة، ذلك أن السياسة الأسبانية بدأت فى تنفيذ خطتها ـ بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م ـ المبنية على تنصير المسلمين والقضاء على مقوماتهم الروحية وآثارهم الفكرية، لكى يحرم أبناء الأمة المغلوبة فى قوتهم الروحية والعقلية. فبالرغم من أن أحد شروط معاهدة الصلح بين الطرفين كان ينص على محافظة ملك الأسبان على الكتب العربية وإبقائها فى يد أصحابها العرب المسلمين، وبالرغم من ذلك إلا أن الكردينال خمنيس

مطران طليطلة جمع الإنتاج الفكرى الأندلسى من جميع أنحاء البلاد، وتكدست فى ساحات غرناطة، واحتفل باحراقها فى ميدان الرملة. وبلغ ما هلك من الكتب العربية فى تلك المحنة أكثر من مائة ألف مخطوط وذلك وفقاً لأدق التقديرات وأكثرها اعتدالاً.(١٧٠). ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل حدث حريق آخر للكتب العربية سنة ١٥١١م بناء على قرار الملكة "خوانا" الذى أجبر الموريسكيين ـ وهم عرب اسبانيا الذين أجبروا على التنصر ـ على اخراج ما لديهم من الكتب العربية فى الدين والقانون لحرقها، وقد حدث الشئ نفسه فى كل من مدن أسبانيا بتعصب طوال أكثر من نصف قرن من أجل محو الشخصية الإسلامية العربية من الوجود الأسبانى.

*** احراق وتلف نتيجة بعض الظروف الطارئة:**

وهذا ما حدث للفقيه النحوى عبد الرحمن بن موسى الهوارى الذى رحل إلى المشرق، وعند عودته إلى الأندلس عطف نحو مدينة بها تدمير وحريق فأودت بكتبه، فأقبل عليه الشيوخ يهنئونه بسلامة القدوم ويعزونه بذهاب كتبه، فقال لهم: ذهب الخُرج وبقى ما فى الدَّرج، أنا شَعبْىّ زمانى، فليسألنى مَنْ شاء(١٧١). ففقدان الكتب مسألة لا تختلف عن فقدان شخص عزير أو صديق حميم، لدرجة أن يتسارع الناس لتعزية صاحبها فى هذا الفقيد الغالى وصدق القائل: وخير جليس (صديق) فى الزمان كتاب.

*** احراق بسبب كراهية الكتب:**

وهذه لم تكن ظاهرة منتشرة فى بلاد الأندلس كانتشارها فى بقية البلاد الإسلامية، ولكنها كانت موجودة بصورة محدودة، فبالرغم من حب المسلمين فى الأندلس للكتب والمكتبات وتقديرهم لدورها الخطير وشغفهم بالكتب جمعا وحفظا واعتناءً، بالرغم من هذا إلا أنه كانت توجد أمثلة استثنائية يدعو أصحابها إلى عدم المغالاة فى ذلك الحب، وعدم الاعتماد الكلى على الكتب

كمصدر للتفاخر. وقد مر ـ من قبل ـ التنوية إلى مقدرة الأندلسيين على حفظ الكتب فى صدورهم، على أساس أن العلم فى الصدور لا فى السطور، وفى ذلك يقول قائلهم:

العلم فى القلب ليس العلم فى الكتب فلا تكن مغرما باللهو واللعب

فاحفظه وافهمه واعمل كى تفوز به فالعلم لا يجتنى إلا مع التعب(١٧٢).

ويرجع البعض كراهية نفر من المؤلفين لكتبهم واحراقها فى أصقاع الدولة الإسلامية إلى ثلاثة عوامل هى:(١٧٣)

١ ـ الخوف من أن تضل هذه الكتب أصحابها.

٢ـ الخوف من تحمل مسئولية أوزار ما يكتبون أمام الله لو ضل الناس بسبب سوء فهمهم لهذه الكتب.

٣ ـ الضمن بهذه الكتب على من لا يعرف قدرها ومن لا يستحقها.

وعلى الرغم من هذا فإن الصورة المشرقة للحركة العلمية فى الأندلس نشطت وازدهرت وأتت ثمارها فى شكل مصنفات تعتبر من أمهات الكتب فى مختلف الميادين العلمية، وفى شكل مكتبات رائعة سرت بحديثها الركبان ـ كما يقولون ـ من أقاص الشرق إلى اقاص الغرب.

الثانية: عمليات نقل الكتب خارج البلاد:

تعتبر هذه العمليات من أهم العوامل التى تؤثر سلبا على وضعية الكتب والمكتبات فى بلد ما، ذلك أن نقل الكتب من بلد إلى آخر معناه تفريغ ثقافى وعلمى وحضارى وتراثى لهذا البلد المنقول منه الكتب.

ويجب التفريق هنا بين عمليتى تصدير واستيراد الكتب وبين نقل الكتب واخراجها من بلد ما، فالاولى تساعد على تنشيط حركة الكتب وتنوع مجموعات المكتبات، وتؤدى إلى التلاقح الفكرى والثقافى بين البلاد، الذى

يتولد عنه قدر مشترك من التفاهم الثقافى بين البلاد بعضها والبعض الآخر. أما الثانية (نقل الكتب) فهى قريبة من النهب والسرقة أكثر منها إلى التبادل والاهداء والاقتناء.

وقد حدث للتراث العربى على مر العصور وفى كل البلاد العربية والإسلامية التى وطأتها أقدام المستعمرين، أشياء كثيرة تندرج تحت العلمية الثانية هذه.

والأندلس كأحد البلاد الإسلامية، بل يكاد يكون أعظم البلاد قاطبة، حدث لانتاجه من الكتب ولمنشآته من المكتبات عمليات نقل ونهب كثيرة. واتخذت هذه العمليات أشكال عدة نسجلها باختصار على النحو التالى:

*** نقل الكتب إلى بلاد المشرق:**

حيث هاجر عدد كبير من علماء الأندلس إلى مختلف بلاد المشرق بسبب الظروف السيئة التى مرت بها البلاد والحروب القائمة بين الأمراء الأندلسيين والملوك الأسبان، ونقل هؤلاء العلماء معهم كثير من الكتب، ويشير "خوليان"[١٧٤] إلى جمّاع الكتب الأسبانى عطية بن سعيد بن عبد الله، الذى طاف بالمشرق وجمع كتباً كثيرة حملها على قافلة من عدة جمال إلى البلاد التى طاف بها.

*** نقل الكتب إلى بلاد المغرب العربى:**

نتيجة للفتن والصراعات القائمة فى البلاد، هرب كثير من العلماء الأندلسيين إلى شمال أفريقيا وبخاصة المغرب، ونقلوا معهم كتبا كثيرة، ولم يقتصر الأمر عند حد نقل الكتب، بل تعداه إلى نقل مكتبات بأكملها، مثل "مكتبة أسرة ملجوم المغربية، وأصلها من شرق الأندلس والتى كانت تحتوى على دفاتر جليلة الشأن لم يكن لأحد من أهل العصر مثلها، قد جمعها

صاحبها فى أسبانيا وهو عبد الرحمن بن يوسف بن محمد بن يوسف بن عيسى الأزدى الاهوانى".(١٧٥)

*** نقل الكتب داخل البلاد:**

وذلك عن طريق نهبها من قبل البربر ومن على شاكلتهم، مثل ما حدث لمكتبة الحكم الثانى، التى وزع الجزء الأكبر من كنوزها الأدبية ومصنفاتها العلمية على الحكام وملوك الطوائف فى أنحاء البلاد فى أشبيلية وقرطبة والمرية وغيرها من المدن.

هذا فضلا عما نهبه الأجانب من دول أوروبا الغربية من أثمن المخطوطات الأندلسية وأفضل ما فى المكتبات الإسلامية وذلك قبل نهاية القرن الثالث عشر الميلادى.

بعد استعراض ما تقدم، تجدر الاشارة إلى نقطة هامة، ألا وهى أن شعوب أوروبا بدأت منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادى تشق طريقها فى مضمار الحضارة والصناعة والتقنية، فقد نفضت عن نفسها غبار الخمول، وتفتحت عيونها على آفاق جديدة من العلم والتقدم بعد دهور من التأخر والانحطاط الفكرى والسياسى.

أما الشعوب العربية والإسلامية فقد كانت تتعثر فى مسيرتها وكأنها لم تعرف كيف تستفيد من مواردها وتراثها ومن الاكتشافات العلمية لعلمائها، أو حتى تستفيد من بوادر النهضة التى سادت شعوب أوروبا.

الخاتمة

باسم الله بدأنا وبحمده نختتم هذه الدراسة التى تناولت واحدة من أهم الدعامات التى قامت عليها النهضة الإسلامية فى الأندلس ألا وهى "الكتب والمكتبات" باعتبارها مصدرا للعلم وموئلا للعلماء.

فقد كرم الله العلم والعلماء، وحث الإسلام على طلب العلم، وتقبل المسلمون الأوائل الدعوة بالاستجابة الصادقة والجهد المتواصل، ولم تقتصر دلالات هذه الدعوة على معنى القراءة والكتابة، بل امتدت إلى فروع شتى لتشكيل أساسيات متعددة ومتميزة للحضارة الإسلامية. وحينما ابتعد المسلمون عن أصول دينهم الحنيف عصفت بهم موجات الغزو والسيطرة الأجنبية والتخلف، ووجدوا أنفسهم فى مؤخرة الركب بعد أن كانوا فى الصدارة.

ومن هنا بدأت التطلعات لتجاوز التخلف، وكان السبيل إلى ذلك هو الدرس والبحث الجاد عن أمجاد الحضارة الإسلامية ودراسة مقوماتها ودعاماتها، ولا مغالاة إذا اعتبرنا أن أول هذه المقومات هى الكتب التى تحتوى على خلاصة فكر العلماء وأروع ابداعات الأدباء، والمكتبات التى تحتضن هذه الكتب.

من هذا المنطلق كانت هذه الدراسة التى حاولت معالجة حركة الكتب ونشأة المكتبات فى الأندلس الذى كان فى يوم من الأيام مصدرا للعلم وشعاعا للمعرفة ومنبعا للثقافة على مستوى بلاد العالم قاطبة.

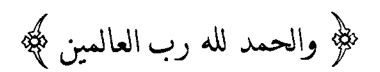
وعالجت الدراسة بصورة مركزة ثلاثة عناصر أساسية تمثل أركان البحث كله، وفى ذات الوقت تنسجم هذه العناصر وتتناغم مع الأهداف الموضوعة سلفا. وجاء العنصر الأول ليتناول بالشرح والتحليل الحركة العلمية والثقافية فى الأندلس باعتبارها الأساس الذى يتمخض عنه انتاج

الكتب ونشأة المكتبات، وجاء العنصر الثانى ليتناول الكتب منذ بداية انتاجها حتى تصل إلى يد القارئ وكل ما يتعلق بها، وكانت الكتب ـ ولا تزال ـ فى ذات الوقت ــ بمثابة مصدر المعلومات الأول من مصادر المقتنيات فى المكتبات، أما العنصر الثالث والأخير فيعالج حركة ونشأة المكتبات فى الأندلس باعتبارها المؤئل الأول الذى تؤول إليه الكتب وتسكن فى جنباته.

ويجب التنويه إلى نقطتين على درجة كبيرة من الأهمية:

الأولى: أن هذا البحث بعناصره الثلاثة بمثابة وحدة عضوية متكاملة، فقد تنثال فى بعض جزئياته المعلومات لاشباعها دون تكرار كانثيال الدم فى أجزاء جسم الانسان دون تكرار. فقد يحدث ذكر معلومة هنا والاشارة إليها هناك، لتخدم غرضا هنا وتؤيد فكرة هناك، وكان الباحث مدركاً لهذا تماماً، بل متعمداً إياه أحياناً، أسجل هذا لأوفر على القارئ الكريم مشقة البحث عن الأسباب الكامنة وراء تكرار بعض الأفكار على ندرتها.

الثانية: ما كان لهذا البحث أن يخطو هذه الخطوات ـ والتى أرجو أن تكون موفقة ـ الا بتوفيق من الله العلى القدير، الذى وهب الباحث الصبر المتواصل والعمل المخلص الدؤوب فيالموضوع الذى يمثل مجرد الولوج فيه أو الاقتراب منه صعوبة بالغة، كما يعرف ذلك كل الأفاضل الذين خاضوا هذا المجال من قبل، ألا وهو "تاريخ الكتب والمكتبات فى الحضارة الإسلامية".



الهوامش والمصادر

١ ـ للاستزادة راجع

أ ـ بطرس البستانى. كتاب دائرة المعارف: قاموس عام لكل فن ومطلب. ــ بيروت: دار المعرفة، د.ت. جـ٤، ص ٤٧٢،٤٧٣.

ب ـ السيد عبد العزيز سالم. فى تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس. ــ الاسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٥.ص ٣-٩.

٢ ـ حسين مؤنس. حديث الفردوس الموعود. **المجلة**، س٦،ع٦٣ (ابريل ١٩٦٢). ص ١٢-١٦.

٣ ـ هناك مؤلفات كثيرة تعرضت لتاريخ أسبانيا بصفة عامة وتاريخ الأندلس بصفة خاصة، منها المصادر الأصلية ومنها المراجع الحديثة، فمن أمثلة النوع الأول نجد:

أ ـ ابن الآبار، محمد عبد الله بن أبى بكر القضاعى. الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس. ــ القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦٣.

ب ـ ابن بسام، أبو الحسن على الشنترينى. الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، تحقيق احسان عباس. ــ بيروت دار الثقافة، ١٩٧٨.

جـ ـ ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف. المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس، تحقيق محمود مكى. ــ بيروت دار الكتاب اللبنانى، ١٩٦٣.

د ـ لسان الدين بن الخطيب. الاحاطة فى أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان.ــ القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٥.

هـ ـ المقرى، أحمد بن محمد التلمسانى. نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس. ــ بيروت: دار صادر، ١٩٦٨........ وغيرها كثير.

ومن أمثلة النوع الثانى نجد:

أ ـ محمد عبد الله عنان. الاثار الأندلسية فى أسبانيا والبرتغال.ـ القاهرة: مؤسسة الخانجى، ١٩٦١.

ب ـ أحمد بدر. تاريخ الأندلس فى القرن الرابع الهجرى: عصر الخلافة.ـ دمشق: ألف باء، ١٩٧٤.

جـ ـ محمد ماهر حماده. الوثائق السياسية والإدارية فى الأندلس وشمال إفريقية.ـ بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٠.

د ـ حسن محمد جوهر، مصطفى حسن شرف. اسبانيا: فردوس العرب المفقود.ـ القاهرة: مؤسسة الشعب، ١٩٧٦. .... وغيرها كثير.

٤ـ انظر:

أ ـ محمد عبد الله عنان. مرجع سابق، صفحات متفرقة.

ب ـ السيد عبد العزيز سالم. مرجع سابق، صفحات متفرقة.

جـ ـ عندما حكم المسلمون اسبانيا ثمانية قرون. **الفيصل**، ع ١٨١ (يناير ١٩٩٢) ص٣٥-٤٤.

٥- محمد ماهر حماده. الوثائق السياسية والإدارية وشمال أفريقيا. مرجع سابق، ص ١٠-١٢.

٦ ـ عبد الستار الحلوجى. لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات.ـ القاهرة: دار الثقافة، ١٩٨٢. ص ٣١.

٧ ـ يشير المقرى فى "نفح الطيب" ان العالم عندهم معظم من الخاصة والعامة، يشار اليه ويحال عليه، ويبين قدره وذكره عند الناس، ويكرم فى جوار او ابتياع حاجة (انظر المقرى: نفح الطيب.... جـ١،ص ٢٢٠).

٨ – هشام أبو رميلة. الاسبان والحضارة الإسلامية. **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج٣،جـ٢ (يوليو/ ديسمبر ١٩٨٦) ص ٦٦٦.

٩ـ للاستزادة راجع:

أ ـ عبد الستار الحلوجى. مرجع سابق، ص ٣٠-٣٤.

ب ـ محمد ماهر حماده. المكتبات فى الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرها.ـ بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٧٠. ص ٣٦ وما بعدها.

جـ ـ أحمد بدر. مرجع سابق ص ١٥٨ وما بعدها.

د ـ عمر فروخ. تاريخ الأدب العربى ـ بيروت: دار العلم للملايين، د. ت جـ ٦، ص ٥٢ وما بعدها.

هـ ـ حسن على حسن. الحضارة الإسلامية فى المغرب والأندلس.ـ القاهرة: مكتبة الخانجى، ١٩٨٠. صفحات متفرقة.

و ـ عبد الرحمن على الحجى. سمت العلماء فى الأندلس وعنايتهم بجمع الكتب. **الأمة** (قطر)، س١،ع٣ (يناير ١٩٨١). ص٢٩.

ز ـ عمر الدقاق. العلوم العربية فى الأندلس وأثرها فى أوروبا. **التراث العربى**، س ١٣،ع ٤٩، (اكتوبر ١٩٩٢). ص ٦٨.

١٠ ـ المقرى. مرجع سابق، جـ٥ ، ص ٥٢٥.

١١ ـ لسان الديب بن مرجع سابق، جـ١، ص٥٠٩.

١٢ ـ نفس المؤلف والمرجع، جـ ١، ص ١٩٩. وأيضا: المقرى. مرجع سابق، جـ ٤، ص ١٧١.

١٣ ـ منجد مصطفى بهجت. اعلام النساء الأندلسيات. **المورد**، مج ١٩، ع١ (١٩٩٠) ص ١٠٠، وما بعدها.

١٤ ـ نقلا عن: ريبيرا، خوليان. المكتبات وهواة الكتب فى أسبانيا الإسلامية. **مجلة معهد المخطوطات العربية**. مج ٤، جـ١ (مايو ١٩٥٨) ص ٩٤.

وللاستزادة عن دور المرأة فى التعليم والنسخ وحب الكتب، انظر نفس المقالة ص٩٣-٩٥.

١٥ـ ابن الفرضى، عبد الله محمد بن يوسف الأزدى. العلماء والرواة للعلم بالأندلس، عنى بنشره عزت العطار الحسيني.ـ القاهرة: د.ن، ١٩٥٤. جـ٢ (ت ١٢٥١) جـ ١ (ت٧٧٧،٨٨٦).

١٦ ـ أحمد بدر. مرجع سابق، ص ١٥٩.

١٧ـ نفس المؤلف والمرجع، ص ١٥٧.

١٨ـ شوقى ضيف. المدارس النحوية. ـــ ط٤. القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩. ص ٢٨٨-٢٩٢ .

١٩ـ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. المقدمة، تحقيق حجر عاصى.ـ بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٨. ص٣٦٢.

٢٠ـ السيد عبد العزيز سالم. مرجع، ص ٢٩٥.

٢١- يذكر المقرى فى "نفح طيبه" جملة من نساء أهل الأندلس اللاتى لهن اليد الطولى فى البلاغة والأدب والشعر، وأشرت فى المتن إلى بعضهن، ولمن يرغب أن يستزيد فيرجع إلى (المقرى. مرجع سابق، مج ٤، ص ١٦٦-٢٠٥).

٢٢ ـ حسن على حسن. مرجع سابق، ٤٨٣-٤٨٤.

٢٣ ـ السيد عبد العزيز سالم. قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس. ـ الاسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، د.ت جـ٢، ص ١٩٨.

٢٥ ـ يعتبر ابن حزم من أغور المؤلفين المسلمين فى الأندلس انتاجا، حيث ألف فى كل علم وفن، ويذكر ابنه أبو رافع انه اجتمع عنده بحظ أبيه من تأليفه نحو أربعمائة مجلد، تشمل على ما يقرب من ثمانين ألف ورقة، ويؤيد ذلك ياقوت الحموى بقوله: وهذا شئ ما علمناه لأحد ممن كان فى دولة الإسلام قبلة إلا لأبى جعفر بن جرير الطبرى فانه أكثر أهل الأرض تصنيفاً (انظر: ابن حزم . طوق الحمامة فى الألفة والآلاف، تحقيق حسن كامل الصيرفى. ـ القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٦٧. المقدمة صفحة: هـ)

٢٦ ـ أحمد بدر . مرجع سابق ص ١٧٦.

٢٧ ـ نفس المؤلف والمرجع، ص ١٨٣-١٨٤.

٢٨ ـ صالح أحمد العلى. ودراسة العلوم الرياضية، **المورد**، مج٣ ،ع٤ (١٩٧٤). ص ٤٣ وما بعدها وأيضا: عمر الدقاق. مرجع سابق ص ٧١.

٢٩ـ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. مرجع سابق، ص ٣٠٢-٣٠٤.

٣٠ـ نفس المؤلف والمرجع ص ٣١٥.

٣١ ـ السيد عبد العزيز سالم. فى تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس، مرجع سابق، ص ٢٨٦-٢٨٨.

٣٢ – ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان. طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد. ـ القاهرة، د. ن ١٩٥٥. ص٩٩.

وعن معرفة أسماء مشاهير الأطباء فى الأندلس، يذكر ابن جلجل ـــ وهو أحد اطباء الحكم المستنصر ـــ فى مؤلفه عن طبقات الأطباء أسماء كثيرة منهم مع ذكر مؤلفاتهم الطبية.

٣٣ ـ ابن أبى أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد. عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، تحقيق ونشر نزار رضا. ـ بيروت: د.ن، ١٩٦٥. ص ٤٩٢.

٣٤- محمد السويس. العلوم العربية بالأندلس ونقلها إلى أوروبا. بحث قدم فى الندوة العالمية للثقافة العربية الأسبانية، دمشق، ديسمبر، ١٩٩٠. ص ٧.

٣٥ ـ هونكه، زيغريد. شمس العرب تسطع على العرب: أثر الحضارة العربية فى أوروبا، نقله عن الألمانية فاروق بيضون، كمال دسوقى؛ راجعه ووضع حواشيه مارون عيسى الخورى. ـ بيروت: المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر، ١٩٦٤.ص ٤٦.

٣٧ ـ محمد ماهر حمادة. الكتب والمكتبات فى الأندلس. **مجلة كلية العلوم الاجتماعية** (الرياض)، ع٦ (١٩٨٢).ص ٣٦٣.

٣٨ ـ نفس المؤلف والمرجع والصفحة.

٣٩ ـ عمر الدقاق. مرجع سابق، ص ٦٨.

٤٠- بيدرسن، يوهنس. الكتاب العربى منذ نشأته حتى عصر الطباعة، ترجمة حيدر غيبة.ــ دمشق: الأهالى للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٩. ص٦١.

٤١ ـ السيد عبد العزيز سالم. قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس، مرجع سابق، ص ١٦١. وأيضاً: المقرى. مرجع سابق، جـ ١، ص٣٩٥.

٤٢ ـ شعبان خليفة، وليد محمد العوزة. الفهرست لابن النديم. ــ القاهرة: العربى للنشر والتوزيع، ١٩٩١. مج١، ص ١٠.

٤٣ ـ هونكه، سيغريد. مرجع سابق، ص ٥٠٠.

٤٤ ـ أفرد الدكتور عبد الستار الحلوجى فصلا عن التأليف والاملاء عند المسلمين فى كتابة "المخطوط العربى" وعلى من يريد المزيد فليرجع إليه (انظر: عبد الستار الحلوجى. ـ المخطوط العربى. ـ ط٢. ــ مكتبة مصباح، ١٩٨٩. ص ١٣٣ـ١٤٣).

٤٥ ـ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. مرجع سابق، ص ٢٦٨.

٤٦ ـ نفس المؤلف والمرجع والصفحة.

٤٧ ـ عبد الستار الحلوجى. لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات. مرجع سابق، ص ٣٥.

٤٨ ـ بيدرسن، يوهنس. مرجع سابق، ص٦٦.

٤٩ ـ اشار خوليان إلى كثير من أسماء الوراقين فى مدن الأندلس المختلفة، انظر: ريبيرا، خوليان. مرجع سابق. مج٥، جـ ١ صفحات متفرقات.

٥٠ ـ ستيبتشفيتش، الكسندر. تاريخ الكتاب، ترجمة محمد م. الأورناؤوط. ــ الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٣. القسم الأول ، ص ٢٣٧.

٥١ ـ محمود الشنيطى. الكتاب العربى بين الماضى والحاضر. ــ القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، د.ت ص [٧].

٥٢ ـ ريبيرا، خوليان. مرجع سابق، مج ٥، جـ١ ، ٧٢.

٥٣ ـ عبد الستار الحلوجى. لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات. مرجع سابق، ٣٥.

٥٤ ـ المقرى. مرجع سابق، جـ ٣، ٣٨٠ـ٣٨١.

٥٥ ـ بيدرسن، يوهنس. مرجع سابق، ص ٤٩.

٥٦ ـ نفس المؤلف والمرجع، ص ٥١.

٥٧ ـ ياقوت الحموى. معجم الأدباء المعروف بـ : ارشاد الأريب فى معرفة الأديب، مج مج٦، ص٤٢٩ (والنص نقلا عن: بيدرسن، يوهنس. مرجع سابق، ص ٥٣).

٥٨ ـ بيدرسن، يوهنس. مرجع سابق، ص ٥٤.

٥٩ ـ أحمد شبلى. التربية الإسلامية: نظمها، فلسفتها، تاريخها. ـ ط٦. ــ القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٨. ص١٧٠.

٦٠ ـ ستيبتشفيتش، الكسندر. مرجع، ص ١٦٥.

٦١ ـ أحمد شبلى. مرجع سابق، ص ١٦٩.

٦٢ ـ للاستزادة راجع:

* تركى عبودى الجبورى. الخط العربى الإسلامى. ـ بيروت: دار التراث الإسلامى للطباعة والنشر، ١٩٧٥. ٢٠٧-٢٦١.

* محمد ماهر حماده. الكتاب العربى: مخطوطاً ومطبوعاً. ـ الرياض: دار العلوم، ١٩٨٤. ص ١٧٧ - ١٨٩.

٦٣ ـ ياقوت الحموى. مرجع سابق، جـ١٥، ص ٦٩. (والنص نقلا عن: محمد ماهر حمادة المكتبات فى الإسلام. مرجع سابق، ص ١٦٦).

٦٤ ـ أحمد شلبى. مرجع سابق، ص ٦٥.

٦٥ ـ نفس المؤلف والمرجع، ص ٦٦.

٦٦ ـ بيدرسن، يوهنس. مرجع سابق، ٧٤.

٦٧ ـ محمد ماهر. المكتبات فى الإسلام، مرجع سابق، ص.١٦٨ـ١٧١.

٦٨ ـ المقرى. مرجع، جـ١ ، ص ٣٨٦.

٦٩ ـ بيدرسن، يوهنس، مرجع سابق، ص ١٤٩.

٧٠ ـ ستيبتشفيتش، الكسندر. مرجع سابق، ص ٢٣٨.

٧١ ـ شعبان خليفة، وليد محمد العوزة. الفهرست لابن النديم. مرجع سابق، ص ٧١.

٧٢ ـ ياقوت الحموى. مرجع سابق، ص٣٦. (والنص نقلا عن محمد ماهر حماده المكتبات فى الإسلام، مرجع سابق، ص ١٧٢).

٧٣ ـ نفس المؤلف والمرجع، جـ١٢ ص ١٧١ (والنص نقلا نقلا عن محمد ماهر حماده. المكبتات فى الإسلام. مرجع سابق، ص (١٧١).

٧٤ ـ أحمد شلبى. مرجع سابق، ص ٦٤.

٧٥ ـ ابن بسام. مرجع سابق، مج١، ص ١١ (المقدمة).

٧٦ ـ نفس المؤلف والمرجع، مج٢ قسم ٤، ص ٦٦٢.

٧٧ ـ المقرى. مرجع سابق، جـ ٣، ص ١٩٠.

٧٨ ـ ابن بشكوال، ابو القاسم خلف عبد الملك. الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس، تحقيق عزت العطار الحسينى. ـ القاهرة: مكتبة نشر الثقافة الإسلامية، ١٩٥٥. جـ١، ص٢٣٣.

٧٩ ـ حسين نصار. المعجم العربى. ـ القاهرة: دار الكتب العربى، ١٩٥٦. جـ، ص ٣٤٤.

٨٠ ـ ابن بشكوال. مرجع سابق، جـ ١، ص ١٢٢.

٨١ ـ المقرى. مرجع سابق، جـ٢ ، ص ٦٠٢.

٨٢ ـ المراكشى، عبد الواحد. المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان. ـ القاهرة: لجنة احياء التراث الإسلامى، ١٩٦٣. ص ١٤٢ـ١٤٤.

٨٣ ـ ابن مسرة: واسمة بالكامل محمد بن عبد الله بن مسرة، عاش فى السنوات الأولى من القرن العاشر الميلادى فى صومعة صغيرة يمتلكها فى جبل قرطبة، بدأ يفكر تحت مظهر العابد التقى الورع، فى نظام فلسفى عقيدى جديد تماماً على الأندلسيين، أخذ يدرسه لطلابه ومريديه و ينشره من خلال مؤلفاته، حتى انتشرت أفكاره وكون مدرسة تدعو بحرية الفكر وخاصة فى المسائل الدينية، تصدى له مجموعة من الفقهاء فى تفنيد أفكاره ومحاربة أتباعه وتم حرق كتبه ورسائله (انظر: بروفنسال، ليفى. مرجع سابق، ص ١٧٨ـ١٨١).

٨٤ ـ يحيى محمود ساعاتى. الوقف وبنية المكتبة العربية: استنباط للموروث الثقافى.ـ الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات والإسلامية، ١٩٨٨. ص ٧٧.

٨٥ ـ المقرى. مرجع سابق، جـ٧، ص ١٠٢ـ١٠٣.

٨٦ ـ نفس المؤلف والمراجع، جـ١، ص ٣٨٦.

٨٧ ـ أحمد أمين. ظهر الإسلام. ـ القاهرة مطبعة خلف، ١٩٥٨. جـ ٣، ص ٢٣٣.

٨٨ ـ ابن جلجل. مرجع سابق، المقدمة صفحة (ك)، ص ٢٢.

٨٩ ـ للاستزادة انظر:

* عمر الدقاق. مرجع سابق، ص ٧٤.

* السيد عبد العزيز سالم. فى تاريخ وخضارة الإسلام فى الأندلس، مرجع، ص ٢٨٩.

٩٠ ـ شعبان خليفة، وليد محمد العوزة. مرجع سابق، مج١، ١٠٩.

٩١ ـ نفس المؤلف والمرجع، مج١، ص٥ (النص).

٩٢ ـ ريبيرا، خوليان. مرجع سابق، مج٥، جـ١ ص ٧٢-٧٣.

٩٣ ـ نفس المؤلف والمرجع، مج٤، جـ١، ص٨١.

٩٤ ـ أشارت جل المصادر إلى أن عدد الكتب بالمكتبة بلغ ٤٠٠ ألف مجلد، ما عدا "دائرة معارف القرن العشرون" لمحمد فريد وجدى، التى ذكرت أن المكتبة اشتملت على ٦٠٠ ألف مجلد (انظر: دائرة المعارف، جـ ٧، ص ٧٥٢، جـ ٨، ص ٦٤).

٩٥ ـ محمد ماهر حماده. الكتب والمكتبات فى الأندلس، ومرجع سابق، ص ٣٦١.

٩٦ ـ الطاهر أحمد مكى. دراسة فى مصادر الأدب. ـ ط٥. ـ القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٦. ص ٦٩.

٩٧ ـ ابن عطية، محمد عبد الحق. فهرس ابن عطية، تحقيق محمد أبو الأجفان، محمد الزاهى. ـ طـ ٢ـ بيروت دار الغرب الإسلامى ١٩٨٣. ص ٤٠ـ٤١.

٩٨ ـ ابن جابر الوادى آشـى. برنـامج ابن جـابر، تحقيـق محمـد الحبيـب الهيلـة. ـــ مكـة المكرمـة: مركـز البحــث العلمــى واحيــاء الـتراث الإســلامى بجامعــة أم القــرى، ١٩٨١.ص٤.

٩٩ ـ الأمثلة كثيرة بشأن الدراسات التى تشير إلى الحيـاة الفكريـة والعلميـة فـى الأندلـس، نذكر منها ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ ما يلى:

أ ـ بروفنسال، ليفى. مرجع سابق، ص ٥١-٩٩.

ب ـ السيد عبد العزيز سالم. قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلـس، مرجـع سـابق ص ١٥٧ـ ٢٢٠.

جـ ـ أحمد بدر. مرجع سابق، ص ١٥٨-١٩٧.

١٠٠ ـ المقرى. مرجع سابق، جـ١ ، ص ٢٠٥.

١٠١ ـ عبد الستار الحلوجى. لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات، مرجع سابق، ص ٣٣.

١٠٢ ـ حامد الشافعى دياب. الضبط الببليوجرافى للانتاج الفكرى فى الأندلـس، بحـث قـدم إلى الملتقى الدولى حول المراكز الثقافية فىالمغرب العربى. الجزائر (وهران) ١٨- ٢٠ ابريل ١٩٩٣. ٦٣ ورقة، ويعتبر هذا البحث مكملا لدراسة موضوع "الكتب فـى الأندلس".

١٠٣ ـ سعد محمد الهجرسى. الاطـار العـام للمعلومـات. **الاذاعـات العربيـة**، ٧٦ (فـبراير ١٩٧٦). ص ٤٦ وما بعدها. نشر هذا الاطار أكثر مـن مـرة وفـى أكـثر مـن مكـان وتحت أكثر من مسمى مثل: نظرية الذاكرة الخارجية، وفى أكثر من طريقـة للنشـر، لعل أولها مصدرنا الذى أشرنا إليه، وهذا الاطار يعتبر من البواكير العربيـة الرائـدة التى تتعرض لهذا الموضوع بالبحث والدراسة.

١٠٤ ـ ميدوز، جاك. آفاق الاتصـال ومنـافذة فـى العلـوم والتكنولوجيـا، ترجمـة حشـمت محمد على قاسم. ـ القاهرة: المركز العربى للصحافة، ١٩٧٩. ص١٢٩-١٣٠.

١٠٥ ـ سقطت الخلافة الأموية فى دمشق سنة ١٣٢هـ وقضى العباسيون على دولة بنى أمية، وأخذوا يتتبعون بنى مروان بالقتل، واستطاع أحد هؤلاء الأمراء واسمه عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام أن يفلت من أيديهم وينجو بنفسه من فتك العباسيين، ونجح فى اجتياز مصر ملتمساً النجاة فى الأطراف الغربية للدولة الإسلامية حتى وصل إلى افريقيا، وعبر منها سنة ١٣٨هـ إلى الأندلس، فسمى بالداخل لأنه أول من دخلها من بنى مروان (انظر: السيد عبد العزيز سالم. فى تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس، مرجع سابق، ص ١٢).

١٠٦ ـ ريبيرا، خوليان مرجع سابق ، مج ٤، ج١، ص ٨٢ ٠

١٠٧ـ ، ١٠٨ـ انظر:

* المقرى ٠ مرجع سابق ، ج١، ص ٤٦٣ ٠
* ريبيرا ، خوليان٠ مرجع سابق ، ص ٧١ ٠
* عبد الستار الحلوجى ٠ لمحات من تاريخ الكتب و المكتبات ، مرجع سابق ، ص ٤٠ـ ٤١
* محمد ابراهيم زغروت ٠ مكتبة الأمويين الاسلامية فى قرطبة و تأثيرها الفكرى فى شعوب غرب أوروبا٠ **مجلة البحوث الاسلامية** ، ع ١٧(١٤٠٦هـ) ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩ ٠

١٠٩ ـ محمد فريد وجدى ٠ دائرة معارف القرن العشرون : الرابع عشر ـ العشرين ـ بيروت : دار الفكر ، ١٩٧٩ ٠ ج ٨ ، ص ٦٢ ٠

١١٠ ـ محمد محمد أمان ٠ الكتب الاسلامية ، ترجمة سعد بن عبدالله الضبيعان ـ الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٩٩٠ ٠ ص ٦٦ ٠

١١١ ـ هونكه ، سيغريد٠ مرجع سابق ، ص ٤٩٩

١١٢ ـ محمد عجاج الخطيب ٠ لمحات فى المكتبة و البحث و المصادر٠ ـ ط ٦ ـ بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٠ ص ٤٠ ٠

١١٣ ـ (مجلة) **المقتطف**، مج ٧ (١٨٨٣) ص ٥٦٤

١١٤ ـ ريبيرا ، خوليان • مرجع سابق ، صفحات متفرقات •

١١٥ ـ دى بور ، ت •ج • تاريخ الفلسفة فى الاسلام ، تعريب عبد الهادى أبو ريدة• ـ ط٢ • ـ القاهرة : لجنة التاليف و الترجمة و النشر ، ١٩٥٧ • ص٤١٧.

١١٦. ـ عبد الستار الحلوجى• لمحات من تاريخ الكتب و المكتبات • مرجع سابق ، ص٣٩ •

١١٧ ـ محمد ماهر حماده • المكتبات فى الاسلام، مرجع سابق ، ص٨٦ •

١١٨ ـ ريبيرا ، خوليان • مرجع سابق ، صفحات متفرقات •

١١٩ ـ ابن بشكوال • مرجع سابق ، ج١ ، ص٢٩٨ ـ ٢٩٩ •

١٢٠ ـ نفس المؤلف و المراجع ، ج٢ ، ج٢ ، ص٦٥٤ •

١٢١ ـ شلبى مولاى اسماعيل • وقفة مع المكتبة على أرض المغرب • **الأمة** (قطر) ، س٤ ، ع٤٧ (أغسطس ١٩٨٤)• ص ٧٧ •

١٢٢ ـ للاسزادة انظر :

* المراكشى، عبد الواحد • مرجع سابق ، ص٢٣٩ •
* محمد تطوان المنونى• العلوم و الاداب و الفنون فى عهد الموحدين•ـ تطوان ، د•ن، ١٩٥٠ •ص٢٨١ •
* شلبى مولاى اسماعيل • مرجع سابق ، ص ٧٦ ـ ٧٧ •

١٢٣ ـ القلقشندى ، أبو العباس أحمد• صبح الاعشى فى صناعة الانشا. ـ القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٩١٤ ـ ١٩١٩ • ج١ ، ص ٤٦٦ •

١٢٤ ـ محمد عبد الله عنان • مرجع سابق ، ص ٤٣١ ـ ٤٣٢ •

١٢٥ ـ نفس المؤلف و المراجع ، ص ٤٣٢ •

١٢٦ ـ حسن محمد جوهر ، مصطفى حسن شرف • مرجع سابق ، ص ١١٣ •

١٢٧ ـ الخزانة الملكية فى المغرب • **الأمة** (قطر) ، س٢، ع ٢٢ (أغسطس ١٩٨٢). ص٥٧ وأيضا:

* محمد عبدالله عنان • مرجع سابق ، ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣ •

١٢٨ ـ حامد الشافعى دياب • مرجع سابق ، ص٣٧ •

١٢٩ ـ محمد عبدالله عنان · مرجع سابق ، ص٤٣٣ ·

١٣٠ ـ ريبيرا ، خوليان · مرجع سابق ، ص٥٤ ·

١٣١ ـ المراكشي. مرجع سابق، ص ٥٤.

١٣٢ ـ انظر:

* ريبيرا، خوليان. مرجع سابق، مج٤، جـ١ ، ص ٨٦.

* محمد ابراهيم زغروت. مرجع سابق، ص ٣٣٧.

١٣٣ ـ ابن الأبار. الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس. ـ القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٦٣، ٢٠٦.

١٣٤ ـ محمد فريد وجدى . مرجع سابق، مج١، ص ٦٦٦.

١٣٥ ـ للاستزادة راجع:

* المقرى. مرجع سابق، مج١ ، ص ٣٨٦، ص ٣٩٥.

* هونكه، سيغريد. مرجع سابق، ص ٥٠٠-٥٠١.

* ريبيرا، خوليان. مرجع سابق، مج٤، جـ١، ص ٨٥-٨٦.

١٣٦ ـ ابن بشكوال. مرجع سابق، جـ ١، ص ٢٩٨ـ٢٩٩.

١٣٧ ـ أشار خوليان إلى أسماء كثير من النساخين والنساخات الذين يعملون فى مكتبة الحكم (انظر: ريبيرا، خوليان. مرجع سابق، مج٤ ، جـ١ ، ص ٨٧-٨٩).

١٣٨ ـ نفس المؤلف والمرجع، ص ٩٠.

١٣٩ ـ يحيى محمود ساعاتى. مرجع سابق، ص ٣٣.

١٤٠ ـ المقرى. مرجع سابق، جـ٢ ، ص ٥٤٣.

١٤١ ـ ريبيرا، خوليان. مرجع سابق، مج٤، ،جـ١، ص ٨٨.

١٤٢ ـ نفس المؤلف والمصدر، مج٥، جـ١، ص ٨٨.

١٤٣ ـ ابن جلجل. مرجع سابق، المقدمة صفحة (ك)، ص ٢٢.

١٤٤ ـ المقرى. مرجع سابق، جـ ١، ص ٣٦٧،٣٨٦.

١٤٥ ـ المراكشى. مرجع سابق، ص ١٧٠.

١٤٦ ـ محمد ابراهيم زغروت. مرجع سابق، ص ٣٤١.

١٤٧ ـ ريبيرا، خوليان. مرجع سابق، مج٤، جـ١، ص٨٩.

١٤٨ ـ المقرى. مرجع سابق، جـ١، ص ٣٨٦.

١٤٩ ـ جاءت عناوين هذه المؤلفات فى أكثر من مصدر منها: المدارك للقاضى عياض، جـ١، ص٤٥، جـ٣، ص٥٣١، ٥٣٦، ٥٤٤ ومنها تاريخ قضاة الأندلس للمالقى، ص ١٩٤ (انظر: محمد ابراهيم زغروت. مرجع سابق، ص ٣٤٥).

١٥٠ـ ريبيرا، خوليان. التربية الإسلامية فىالأندلس، ترجمة الطاهر أحمد مكى. ــ القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١. ص ١٩٠ (والنص نقلا عن: محمد ابراهيم زغروت. مرجع سابق، ص ٣٤٢).

١٥١ ـ ابن الفرضى، عبد الله محمد بن يوسف الأزدى. تاريخ العلماء. ــ القاهرة: الدار البيضاء، د.ت. ترجمة رقم ١٢٩٢. (والنص نقلا عن: محمد ابراهيم زغروت. مرجع سابق، ص ٣٤٢).

١٥٢ ـ محمد ماهر حماده. المكتبات فى الإسلام، مرجع سابق، ص ٧٤.

١٥٣ ـ ابن حزم، محمد. جمهرة أنساب العرب، تحقيق ليفى بروفنسال. ــ القاهرة: دار المعارف، د.ب . ص ٩٢.

١٥٤ ـ بيدرسن، يوهنس. مرجع سابق، ص ١٥٢.

١٥٥ ـ أحمد شلبى. مرجع سابق، ص١٥٨.

١٥٦ ـ كثير من المصادر اشار إلى ذلك أنظر على سبيل المثال.

١٥٧ ـ ابن حزم، محمد. مرجع سابقن ص٩٢.

١٥٨ ـ محمد محمد أمان. مرجع سابق، ص٦٤.

١٥٩ ـ المرقى، مرجع سابق، مج ١ ، ص٣٩٥.

١٦٠ ـ محمد فريد وجدى. مرجع سابق، جـ٧، ص٧٥٢ (مادة قرطبة).

١٦١ ـ المقرى مرجع سابق، مج ١ ، ص٣٩٥.

١٦٢ ـ نفس المؤلف والمرجع والصحفة.

١٦٣ ـ للأستزادة انظر :

ابن شكوال. مرجع سابق، جـ١ ، ص٢٩٨.

ريبيرا ، خوليان، مرجع سابق، مج ٤، جـ ١، ص٩٠.

أحمد بدر. مرجع سابق، ص١٦٦-١٦٧.

١٦٤ ـ محمد ماهر حمادة. المكتبات فى الإسلام، مرجع سابق، ص١٦١.

١٦٥ ـ أحمد شلبى . مرجع سابق، ص١٥٦.

١٦٦ـ للاستزادة أنظر :

السيد عبد العزيز سالم. فى تارخ وحضارة الإسلام فى الأندلس، مرجع سابق، ص ١٥-١٧.

شاكر مصطفى. الدليل فى التاريخ العربى الإسلامى ـ ط ـ الكويت : مؤسسة الكويت للتقدم العلمى، ١٩٨٦. جـ١. ص٦٦٤.

محمد عبد الوهاب خلاف. رؤية جديدة لأسباب سقوط الخلافة الأموية فى الأندلس. **المجلة العربية للعلوم الإنسانية** (الكويت) ، مج٢، ٦ (١٩٨٢)، ص٢٦ وما بعدها.

البلوى، أبو جعفر أحمد بن على الوادى آشى. ثبت البلوى، دراسة وتحقيق عبد الله العمرانى ـ بيروت: دار الغرب الإسلامى ، ١٩٨٣ . ص٤٩.

١٦٧ـ الطليطلى، صاعد بن أحمد. طبقات الأمم. ـ القاهرة : مطبعة السعادة ، د.ت. ص٨٦-٨٧.

١٦٨ ـ ريبيرا، خوليان مرجع سابق، مج ٥، جـ ١، ص٩٤-٩٧.

١٦٩ ـ المراكشى عبد الواحد. مرجع سابق، ص ٢٤٥ـ ٢٤٦.

١٧٠ ـ محمد عبد الله عنان. مرجع سابقن ص٤٣٢.

١٧١ ـ الزبيدى، أبو بكر محمد بن الحسن الأندلسى. طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ القاهرة : دار المعارف، ١٩٧٣. ص٢٥٣.

١٧٢ ـ المقرى. مرجع سابق، جـ٢ ، ص٢٣٦.

١٧٣ ـ عبد الستار الحلوجى. لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات. مرجع سابق، ص٣٨.

١٧٤ـ ريبيرا، خوليان. مرجع سابق ، مج٥ ، جـ١، ٩٢.

١٧٥ـ نفس المؤلف والمرجع، ص٩٣.